

عالم الصمت

ماكس بيكارد

ترجمة: قحطان جاسم



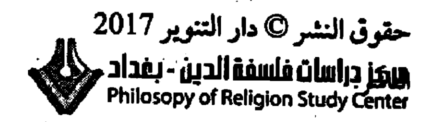


ماكس بيكارد

عالم الصّمت

الكتاب: عالم الصّمت
تأليف: ماكس بيكارد
تقديم: جابريل مارسيل
ترجمة: قحطان جاسم
تصميم الغلاف: الفنان التشكيلي العراقي كريم رسن
عدد الصفحات: 208 صفحة
الترقيم الدولي: 978-614-472-010-3
الطبعة الأولى: 2018

العنوان الأصلي للكتاب
MAX PICARD, THE WORLD OF SILENCE,
© *tr. Stanley Godman, London: The Harvill press, 1948*



بغداد - شارع المتنبي
email: qahtanee@gmail.com
www.rifae.com

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ماكس بيكارد

عالم الصّمت

تقديم: جابريل مارسيل

ترجمة: قحطان جاسم





Für
Ernest Wiechert

توطئة

هذه ترجمة لكتاب «عالم الصّمت» للكاتب والفيلسوف السويسري - الألماني ماكس بيكارد، عن نسخته المترجمة إلى الإنكليزية، والتي قام بها المترجم ستانلي جودمان. صدرت الترجمة عام 1948.

بذلت جهداً كبيراً للحفاظ على بنية الكتاب وأسلوبه، ولغة الكاتب التي تقترب أحياناً من الشعرية، رغم سمتها الفلسفية. وما يمكن ملاحظته في الكتاب المترجم إلى الإنكليزية، هو وقوع بعض الأخطاء الإملائية، على قلتّها، مما اضطرني للجوء إلى النسخة الألمانية ومقارنتها بالنسخة الإنكليزية، حيثما شعرت بوجود خطأ، أو ضعف في الترجمة. إضافة إلى ذلك، تعاني الاستشهادات التي ضمّنها ماكس بيكارد كتابه الأصلي، من بعض الاختلافات مع النصوص الأصلية التي أخذ عنها، ورغم أنني قمت بمراجعة النصوص الأصلية التي استشهد بها بيكارد، إلاّ أنني قمت بترجمتها كما أوردها بيكارد من دون تغيير. أود أن أقدّم هنا جزيل شكري وامتناني لزوجتي Lis Jasim التي ساعدتني بمقارنة النص الإنكليزي مع الالماني.

قام بيكارد أيضاً بتضمين بعض النصوص بلغتها الأصلية من الفرنسية، أو إدخال بعض العبارات اليونانية أو اللاتينية، إلا أن المترجم ستانلي جودمان لم يقم بترجمتها إلى النص الإنكليزي، بل أبقى عليها كما هي،

إلاّ أنني سعيت، مع ذلك، إلى تعريبها، لكي تستقيم مع سياق الكتاب ولإفادة القارئ بصورة أكبر. علاوة على ذلك فقد أرفق بيكارد نصوصه بأسماء كتّابها، من دون أن يذكر أي توضيحات عنهم، مما دفعني، حيثما أمكنني ذلك، إلى إضافة بعض الملاحظات في الهوامش، سواء حول بعض الأسماء، أو الموضوعات التي وردت فيه.

ظهرت في النص المترجم إلى الإنكليزية بعض الفراغات في بعض الجمل، حتى إنها تبدو أحياناً وكأنها ناقصة، أو غير كاملة في بنيتها، وهو أمر غير موجود في النص الأصلي بالألمانية، وسيلاحظ القارئ ذلك في بعض الصفحات.

استثنيت من ترجمة الكتاب نصّين فقط. النصّان مؤلفان من ثلاث وعشرين صفحة، وهما: «الفنون البلاستيكية والصّمت» و«الراديو»، والسبب هو تكرار بعض الأفكار السابقة التي ضمّنها في كتبه الأخرى، أو تكررت في بعض صفحات الكتاب أيضاً، إضافة إلى رغبتي في الحفاظ على الشعرية العالية التي اتسمت بها لغة الكتاب، والتي أرى أنها ضعفت في هذه النصوص التي استبعدتها من الترجمة الحالية.

افتتحتُ الكتاب بمقدمة للفيلسوف الفرنسي جابريل مارسيل، متبوعة بمقدمة قصيرة جدّاً للمؤلف ماكس بيكارد نفسه. كما أرفقت مدخلاً موجزاً قمتُ فيه بتعريف القارئ بحياة الفيلسوف ماكس بيكارد وأعماله.

أود أن أشير أخيراً إلى أن هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها ماكس بيكارد، وبحسب علمي، إلى القارئ العربي. آمل أنني بهذه الترجمة قد قمت بسد بعض الفراغ في هذا الجانب، لأهمية هذا المفكّر.

الكتاب موجّه إلى شريحة واسعة من القرّاء، ومن مختلف الاهتمامات والقناعات والتوجّهات، وهنا تكمن أهميته.

مدخل

حياة ماكس بيكارد وفكره

جوهر الصّمت هو مصالحة التناقضات

أهمية فكر ماكس بيكارد

يكاد القارئ العربي، رغم ترجمة أعمال بيكارد إلى معظم لغات العالم، بما فيها الهندية واليابانية، يجهل تماماً هذا الفيسلوف والكاتب اللاهوتي المهم الذي أُطلق عليه اسم «ضمير أوروبا»[1]، ناهيك عن غياب تام لأي ترجمة لكتبه ودراساته إلى العربية، وانعدام كلي لأيّ بحث، أو متابعة فكرية أو أدبية لأفكاره، التي تشغل مكانة مهمة في اللاهوت المعاصر، والتي جعلت كلاً من الروائي هيرمان هيسه والشاعر ريلكه من بين أشد المتحمّسين لكتاباته.

تنبع أهمية فكر بيكارد من تميّز الموضوعات التي عالجها، والقضايا الحسّاسة التي شرع بها منذ العام 1919. وتقوم الأفكار الرئيسية في اعمال بيكارد على وقوف الانسان بين طرفي معادلة شاقة؛ «مسؤولية محتومة وإمكانية أن يختار»[2]. وانطلاقاً من ذلك، اعتبر بيكارد كلّ ما

(1) Helge Kjærgaard, efterord for Tanker om liv og død - breve til en ven af Max Picard, Exlil-Nordisk tidsskrift for eksistentialistisk debat, København: Vintens Forlag, 196769-, nr. 14-, p. 120

(2) Ibid, p:120

لحق بالبشرية من مآسٍ تالية نتيجة منطقية لانعدام التوازن بين طرفي هذه المعادلة، وبسبب غياب الانسجام، سواء في العالم الخارجي الذي يعيش فيه الإنسان أو عالمه الداخلي، ولهذا فإن الإنسان في العصر الحديث يعيش، بحسب تصوره، حالة تشرذم وهروب جماعي دائم. وقد رأى في الحروب، وصعود الديكتاتوريات وما تبعها من خراب وتدمير طاول الحضارة والإنسان، ومنها صعود الهتلرية الى السلطة في ألمانيا، تجسيداً حيّاً لهذا الخلل في التوازن بين عالم الإنسان الداخلي والظاهري.

«هتلر في نفوسنا» استمرارٌ لتشرذم الإنسان وهروبه من الله

يقدم بيكارد في كتابه «هتلر في نفوسنا» وصفاً وتحليلاً عميقاً لهذا التشرذم في الإنسان، والذي عزاه إلى التدهور الروحي الذي أصاب الإنسان في صميم جوهره.

اعتبر روبرت س. هارتمان، في المقدّمة التي كتبها للطبعة الإنكليزية لكتاب بيكارد «هتلر في نفوسنا»، الذي صدر في العام 1947، الكتابَ بمثابة «هدية روحية لا يمكن قياسها بالزمان والمكان»[1].

يصف بيكارد لنا في هذا الكتاب التحوّل الاجتماعي والنفسي الذي حادث للإنسان في العصر الحديث، والذي مهّد لصعود هتلر، ويتلخّص جوهر هذا التحوّل بغياب القيم الإنسانية والضوابط الأخلاقية التي تحثّ الإنسان على التفكير بأخيه الإنسان، مما جعله يبحث عن ذاتٍ خارجةٍ عن كلّ نسق اجتماعي ذي هدف مشترك. لقد رأى بيكارد في

---

(1) انظر المقدمة بقلم روبرت س. هارتمان لكتاب:

Max Picard , Hitler in our Selves, tr. from Germany by Heinrich Hauser, Hindale, Illionis: Henry Regnery Company, 1947, p.13

هتلر ونجاحه في استلام السلطة تجسيداً لهذا التشرذم الإنساني. أو كما حاول هو أن يوضح ذلك بصورة مبسّطة: «خلال سفرة إلى ألمانيا العام 1932 سألني رئيس حزب سياسي ذي نفوذ كبير كيف يكون ممكناً أن يصبح هتلر شخصية مهمّة ويحصل على أتباع عديدين»[1]. وأضاف بيكارد، مُجيباً، وهو يشير إلى مجلة موضوعة على الطاولة التي تحتوي صوراً لتشرذم الإنسان واندفاعه المتواصل خلف حاجاته المادّية البحتة: «الإنسان المعاصر يجذب كل الأشياء إلى نفسه بصورة فوضوية ومن دون انسجام؛ هذا يبرهن على أنّ حياته الداخلية يعوزها الانسجام. لم يعد الإنسان المعاصر يواجه أشياء العالم باعتبارها أشياء موجودة بثبات، ولا تسجّل الأشياء في عقله بصورة فردية؛ ولا هو يتناول الشيء الخاص من خلال عمل خاص؛ لدى الإنسان المعاصر ذي الحياة الداخلية المشوّشة عالم خارجي مضطرب بصورة مماثلة يلتفّ نحوه»[2]. هذا التشرذم الداخلي الذي أصاب روح الإنسان يمثّل الأساس الذي هيأ الى صعود هتلر الى السلط في ألمانيا.

رأى بيكارد في خراب المدن الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية ويعدها شاهداً ماثلاً عن الخراب الذي أصاب الروح الألمانية، ونتيجة لتضخم الأنانية الذاتية المفرطة للإنسان، وتأكيداً على الانفصام بين عالمه الداخلي وعالمه الخارجي. فطبقاً لبيكارد «وحده الإنسان الذي تعوزه الاستمرارية الباطنية، الذي يوجد بشكل مفكّك من لحظة إلى أخرى، سيحتاج دائماً إلى نفخ وجوده لكي يتأكّد أنه موجود فعلاً. إنّه يصرخ في كل لحظة إلى نفسه وإلى الآخرين، لأنّه ينسى في كل لحظة

(1) Ibid, p.27

(2) Ibid, p.28

أنه موجود»[1]. ولهذا رأى بيكارد في الزعيق المتواصل و«صراخ هتلر، غوبلز، وبقية الزعماء النازيين، للبرهنة من خلال صراخهم على أنهم موجودون»[2]. كان صعود هتلر، علاوة على ذلك، وبحسب بيكارد، نتيجة منطقية لما أصاب الحضارة الأوروبية والإنسان عموماً من انحطاط، وحصول انقطاع تاريخي في تطوّره الإيجابي، وهذا التشرذم والانحطاط الإنساني المتمثّل بغياب الإحساس الإنساني بالآخر، والبحث الدائم عن المنفعة الخاصّة، كان بمثابة المحصّلة والسياق اللذين مكّنا من ولادة هتلر فينا جميعاً.

لهذا خالف بيكارد الفيلسوفة الألمانية حنّا آرنت[3]، التي رفضت وصف أحد قادة النازيين، أدولف إيخمان، خلال محاكماته في الستينات على الجرائم التي ارتكبها أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي كان محصّلتها ملايين البشر الأبرياء، بأنه وحش، وبالتالي تجريده من إنسانيته. لقد اعتبرت آرندت أنّ إيخمان، على الرغم من كل ما ارتكبه من جرائم بشعة بحقّ البشرية، إنسان مارس أعماله بكل وعي وإرادة. وقد أرادت آرنت بذلك أن تحمّل إيخمان وزر أعماله البشعة ومسؤوليته الشخصية عنها. بينما جرّد بيكارد الجرائم النازية من كل إنسانية، ورأى أن «وحشية النازية مع ذلك، نتجت عن جهاز مصنعي، أو لنقل نتجت عن بشرٍ تحوّلوا كليّاً إلى أدوات»[4]، وهو ما يشبه إلى حد كبير ما حدث في العراق في ظل نظام صدام حسين، الذي سعى إلى تحويل أعضاء الدولة

---

(1) Ibid, p.36

(2) Ibid, p.36

(3) هناك اختلافات عديدة فيما يخص كتابة الاسم، البعض يكتبه حنّة أردنت والبعض الآخر يكتبه حنّا آرنت، وهو يلفظ بالالمانية «هنّا آرنت»، لكنني فضلت كتابته حنّا آرنت لشيوعه بين القرّاء والكتاب العرب.

(4) Ibid, p.69

إلى أدوات مجرّدة تماماً من كل صفة أو عواطف إنسانية، كان واجبهم الأساسي تنفيذ ما يصدر إليهم من أوامر بصورة مطلقة؛ لسحق الآخر أو تصفية وجوده الإنساني، من دون الشعور بأيّ رادع أخلاقي أو اجتماعي، أو كما يحدث في بلدان كثيرة في العالم في ظل أنظمة قمعية ترى في الإنسان مجرّد رقم وأداة فحسب، لحماية مصالحها الخاصّة بها.

كتاب «هتلر في نفوسنا» ليس مقاربة فلسفية أو فكرية، بل رؤية تقارب الشعرية كما يشير روبرت هايتمان في المقدمة، والذي يسميه «منهج الفعل»، الذي يؤسّس لأسلوب جديد في الكتابة والبحث، أي الأسلوب الفكري الرؤيوي الذي يمكن أن يكون دليلاً لفهم واقع الإنسان المعاصر في محنه وتحوّلاته، وهو يواجه مصائره المعقّدة.

الانفصام بين البشر والله أو «الهروب من الله»

تناول بيكارد فكرة التشرذم والانفصام، التي أصابت الروح الإنسانية وشملت جميع مناحي الحياة البشرية، مرة أخرى في كتابيه «الهروب من الله» (1934)، و«عالم الصّمت» (1948). وبحسب رأيه يعود هذا الانفصام إلى مساعي الإنسان للهروب من الله. يقول بيكارد موجهاً كلامه إلى الإنسان الغربي: «إنّ سبب هذا الانفصام هو تنحيته المسيحية والإيمان المسيحي جانباً، كأنهما لا ينتميان إلى هذا العالم»[1].

وإذا كان «الهروب من الله» هو نتيجة أو سبباً لهذا التشرذم وغياب الراحة والاطمئنان الروحي للإنسان وحدث في كل العصور السابقة، إلاّ أنّ هروب الإنسان الحديث يختلف تماماً عمّا حدث في كل العصور التي سبقته؛ أو كما يكتب بيكارد «أن يهرب الإنسان من الله أمر حدث

(1) Helge Kjærgaard, Max Picard, Europas samvittighed, Kristeligt Dagbladet, 05:06.1963

في كل الأزمنة؛ لكنّ هروب عصرنا من الله يختلف جوهرياً عن كلّ العصور. في السابق كان الإيمان واقعاً مشتركاً، كان إلى جانب ذلك موجوداً للفرد، كان هناك عالم إيمان موضوعي؛ وحدث الهروب منه في الإنسان الفرد فقط؛ وهو يظهر أولاً حين ينفصل الفرد عبر الإختيار وفعل الإرادة عن عالم الإيمان؛ إذا أراد أن يهرب فإن عليه أولاً أن يخلق هروبه بنفسه. أما الآن، فإن الأمر على العكس: فالإيمان كعالم خارجي موضوعي مقفر؛ وعلى الفرد أن يخلق له الايمان في كلّ لحظة، الآن، من خلال الإختيار وفعل الإرادة، بمعنى، أنّ عليه أن يحرّر نفسه من عالم الهروب، فكل وضع يمكن أن يوجد الإنسان فيه، هو مسبقاً وبالتأكيد تماماً، وضع هروب، كلّ شيء في هذا العالم موجود في شكل هروب فقط[1]. وهكذا، فنحن نعيش في عالم في حالة هروب دائم خارج هذا الهروب لا يعتقد بوجود أيّ إنسان؛ الإنسان موجود فقط كمساهم في الهروب»[2]. في عالم الهروب لا يكون الإنسان فرداً مخلوقاً محدّداً، بل فقط كمجموع من المشاعر، الغرائز، البواعث والأفعال[3]. بينما في عالم الإيمان «هناك رابط حميمي بين الصّمت والإيمان. فمجال الصّمت ومجال الإيمان ينتميان إلى بعضهما. الصّمت هو الأساس الطبيعي، الذي يقوم عليه الإيمان فوق الطبيعي»[4]. إلا أن هذه الحميمية تفقد طبيعتها في عالم الهروب من الله، ويخيّم بدلاً من ذلك الصخب والصراخ والتشرذم أيضاً.

---

(1) Max Picard, Flugten, udvalg og oversættelse ved Helge Kjærgaard, København: Steen Hasselbalchs Forlag, Mcmlx111, p.9

(2) Ibid, p.9

(3) ibid, p.16

(4) Max Picard, Flugten, udvalg og oversættelse ved Helge Kjærgaard, København: Steen Hasselbalchs Forlag, Mcmlx111, p.42

يهيمن موضوع الضجيج وفقدان العالم لصفائه وانسجامه أيضاً في كتابه «عالم الصّمت». ويتجلّى الأمر بصورة واضحة في تعرّض واحدة من خصائص الإنسان الأكثر أهمية في وجوده، وأعني، اللغة، إلى تشوّشٍ واضطراب، إذ تتحوّل اللغة إلى صخب وثرثرة مجرّدة من كلّ حس إنساني وعاطفي، وتتقلّص إلى محض أصوات قاسية خالية من الحياة، ويتلاشى المجال الحيوي الذي يشكّل إطارها وجوهرها الأصيل، وأقصد به، الصّمت. ففي هذا العالم المتشرذم، يزداد الصخب والصياح والثرثرة، وتفقد الأشياء صفاءها، ويعيش الإنسان في حالة بحث دائمة عن الصّمت والسكون الذي يضاهي الصفاء الروحي والنفسي للإنسان، مثلما كان صياح زعماء النازية في كتابه «هتلر في نفوسنا» تعبيراً عن خواء روحي ووجودي لأولئك الأشخاص الذين شاركوا في عملية موت واسعة للبشر. فالصّمت كما يكتب بيكارد: «الصّمت هو الظاهرة الأساسية. أيّ أن تقول، هو الواقع الأولي الموضوعي، الذي لا يمكن إرجاعه إلى أيّ شيء آخر. لا يمكن تعويضه بأيّ شيء آخر؛ لا يمكن تبادله مع أي شيء آخر. لا شيء خلفه يمكن الإرتباط به باستثناء الخالق ذاته»[1]

حياة بيكارد وكتاباته[2]

ولد بيكارد في 5 حزيران 1888 في شوفهايم، وتوفي في 3 تشرين الأول العام 1965 في سورونجو في سويسرا. أنهى دراسته الطب وحصل على شهادة الدكتوراه، إلا أنّه ترك الطب وما تعلّق به من نظريات ومناهج

(1) Max Picard, The World of Silence, tr. by Stanely Godman, London: The Harvill Press, 1948, p.21

(2) https://en.wikipedia.org/wiki/Max_Picard

اعتمدت على بعض المعلومات الواردة في هذا الرابط للكتابة عن حياته:

دارونية - وضعية - وآلية العام 1918 كي يتفرغ لفهم عذابات الإنسان ومصائبه الراهنة. وقد استخدم معارفه الطبية والنفسية للتعمّق في الرؤى الميتافيزيقية والدينية في مسعى لفهم محنة وحاجات الإنسان الواعية واللاواعية. وشكّلت الأزمات التي عاشتها أوروبا ما بين الحربين العالميتين، وما تلتهما من مآسٍ في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، خلفية للعديد من كتبه وأفكاره.

منح العام 1952 جائزة هيبل تقديراً لنشاطاته الفكرية الكبيرة، كما خضعت أفكاره وكتبه إلى دراسات عدّة من جانب النقّاد والمفكّرين على امتداد العالم.

صدر عمله الأول بالألمانية «الرسم الشعبي التعبيري» العام 1917 ثم توالى بعد ذلك صدور العديد من أعماله، من بينها: «الإنسان الأخير»(1921)، «الوجه الإنساني»(1930)، «الهروب من الله» (1934)، «هتلر في نفوسنا»(1947)، و«عالم الصّمت»(1948). كما صدر له «تشرذم الفنون الحديثة» (العام 1954)، ونصوص أخرى، من بينها: «أفكار حول الحياة والموت. رسائل إلى صديق». وبعد موته صدرت له كتب أخرى تتناول السيرة الذاتية.

المترجم: قحطان جاسم

2016

تمهيد

هل عليّ أن اعترف؟

عندما قرأت كتاب ماكس بيكارد، عالم الصّمت، لأول مرّة، أربكني. ففي كل مكان في هذا الكتاب يتحدث بيكارد عن الصّمت، يتحدث عنه بإصرار وبمهابة. لم أستطع في البداية أن أقنع نفسي بأنّ الصّمت الذي يتحدث عنه هو شيء إيجابي، وأنه ليس مجرّد نقص لشيء ما. اليوم، لم يعد الأمر كذلك؛ أعتقد أن كتاب بيكارد يلمس الأوتار نفسها، أو تقريباً الأوتار نفسها في روحي التي لمست روحه حتماً عندما عبّر عنه. الحقيقة هي أنني أصبحت خلال العام الماضي مباشرة وبحماسة أكثر من أيّ وقت سابق آخر واعياً للغز الذي يكون مضمراً في كلمات كهذه. لقد أصبحت واعياً لما يسميه المرء قيمة الأنطولوجي، أو فلسفة الوجود، واللغة الإنسانية؛ وربما أنا مدين بهذا الوعي إلى الصفحات القليلة التي كثّف فيها هايدغر الانطباعات التي أيقظتها فيه قراءة هولدرين وريلكه. أنا أفكّر بتلك العبارات التي كتبها هايدغر في «رسالة حول الإنسانية»: «اللغة هي مكان إقامة الكائن»، سيكون من الصعب جدّاً ترجمة تلك العبارة بمفردات مجرّدة، لكنها تعبّر بلا شك عن بصيرة حبلى إلى أقصى

حد. هذه كما تبدو مفارقة، فإذا بدأنا بفهم قيمة وواقعية اللغة فقط عند مستوى فلسفة الوجود - بقيمة الحقيقة ليس فقط من اللغة عموماً بل من الكلمة كما هي - بحيث إننا نعترف ما يعنيه ماكس بيكارد في هذا الكتاب عندما يتحدث عن الصّمت.

من وجهة نظر نقد عدائي، طبعاً - أعني، من وجهة نظر تلك التقاليد التطوّرية والأمبريقية في الفلسفة، التي لها جذور في القرن الماضي، وحتى أكثر عمقاً على امتداد فلسفة القرن الثامن عشر للإدراك الحسّي والمشاركة[1]- تفقد ميتافيزيقات بيكارد أي معنى ممكن؛ إنها تصبح مجرّد سخافة. بالنسبة إلى تلك الفلسفة الأمبريقية، فإن الكلمة كما هي تكون مجرّد نوع واحد من العلامة. لكن، دعونا نتذكّر أن ذلك العظيم ويلهلم فون همبولت قد أكد مسبقاً بأسلوب أكثر صراحة أنه لا يمكن تقليص اللغة إلى مجرّد نظام من العلامات، عندما قال إن اللغة، من وجهة نظره، ينبغي أن تعتبر كنعمة وهبت للبشرية مباشرة كما هي. وإذا قبلنا موقف همبولت فسيكون من الممكن أن نفهم - أو بالأحرى أن ندرك - كم يكون مسموحاً به أن تفكّر بالكلمة، كما هي، تنبعث من كمال الصّمت؛ وكيف أن هذا الكمال للصمت منح الكلمة، كما كانت، وظيفتها الشرعية. يخبرنا ماكس بيكارد مثلاً، عندما يبدأ إنسانان يتحادثان معاً، فهناك على الدوام ثالث يصغي، وهذا الثالث هو الصّمت. لكن يصبح مثل هذا التعبير مفهوماً فقط إذا نحن ميّزنا بين الكلام، بالمعنى الصحيح، والثرثرة المحضة. عندما يثرثر شخص فقط، فلم يعد هناك الثالث المصغي الصامت، أو الصّمت المصغي، ربما لأنه لم يعد هناك

---

(1) هنا إشارة إلى نظرية «المشاركة» أو الصلة التي تعود الى هيوم، حيث تصف الظاهرة السايكولوجية المعقدة التي تقوم على الصلة بين الحواس والبواعث وردود الفعل، أو العناصر العقلية والسلوكية الأخرى باعتبارها الأولية.

أي شخص حقيقي مشترك في المحادثة، بل مجرد نوع من إداء بشر آليين. علاوة على ذلك، كما رأى ذلك هايدغر بكل وضوح أيضاً، الكلام اليوم ينحو إلى التدهور أكثر وأكثر إلى ثرثرة - إلى ما يسميه ثرثرة[1]. ويكون، طبقاً لتلك الحقيقة المفروغ منها، أصعب وأصعب لنا أن نتعرّف على قيمة الصّمت: قيمته المعرفية، وعمق وجوده، أو العمق في وجوده.

سيجد القارئ في مؤلف بيكارد سلسلة من النقاشات حول مثل هذه المواضيع، مثل علاقة الصّمت بالحب، بالإيمان، بالشعر - النقاشات التي تكون مجموعة مقاربات ملموسة تجاه ذلك الواقع الذي نجدُ بلوغه اليوم صعباً جدّاً. نجده صعباً تماماً إلى الدرجة التي فقدنا فيها الإحساس بمعنى التأمل، ونفس كلمة «تأمل»، غدت لأكثر معاصرينا كلمة ميتة. وسيكون سهلاً الإستشهاد بالنقد الباهر حول هذه الموضوعة عن عدم استمرارية الوجود اليوم الذي قدّمه بيكارد في كتاب آخر له، هتلر ونفوسنا[2].

يوجد هناك بعض المعنى الذي يوّحد فيه الصمتُ- بشكل خاص صمت التأمّل - الحاضر والماضي والمستقبل؛ والحب مثلاً، يعبر عن نفسه بواسطة الصّمت أكثر مما عن طريق كلام؛ وتلك الحقيقة بالذات تساعدنا كي نفهم كيف يكون أولئك الذين يحبّون بعضهم البعض الآخر، كما هم، يَسمون فوق مستوى الدنيوي المحض. ملكات الحدس والفراسة التي تكون مضمونة بعض الأحيان لأولئك الذين يحبّون بعضهم بعضاً تكون مرتبطة تماماً بهذه الخاصيّة من الصّمت فوق الدنيوية.

---

(1) (بالالمانية وهي هنا بمعنى ثرثرة، لغو، كلام متواصل.. الخ. gerede ترجمة لمفردة).

(2) يقصد كتاب ماكس بيكارد «هتلر في نفوسنا».

ويمكن للمرء أن يذهب أبعد؛ يمكن للمرء أن يقول إن علينا أن نبحث في الصّمت على الأرض الأصلية التي يمكن أن ينمو فيها الإيمان، أو الأسس التي يمكن إقامتها عليها. يمكن أن يقول المرء، مثلاً، إن بين ذلك الحادث غير المسموع، الحلول،[1] وصيرورة الإنسان يتوسّط الصّمت كضربٍ من حاجز؛ وعلى هذا النحو، في الاقتراب من الله، يقترب الإنسان من الصّمت الذي يطوّق الله ذاته به. إنه علامة على حب إلهي، يكتب ماكس بيكارد في جملة رائعة، أن لغز الإيمان ينشر حول نفسه دائماً نوعاً من حجاب الصّمت. يبدو لي انّه بأخذ تجارب كهذه، باديءَ ذي بدءٍ، كنقطة إنطلاق- تجارب تشارك بصورة جوهرية المهيب أو المقدّس - يمكننا أن نجمع لأنفسنا المعنى العميق لرسالة ماكس بيكارد. لكن عالمنا صار، من الجانب الآخر، علمانياً. وكلما كابد من التدنيس أو الانتهاك - كلمات تكفّ، من وجهة النظر هذه، عن الإشارة إلى أي شيء واقعي، حيث لا توجد أماكن مقدسة الآن - كلما يكون هذا الكتاب في خطر الظهور بصورة غامضة: في خطر تقليص نفسه، حتى بالنسبة إلى القارئ غير المتعاطف، إلى سلسلة من أساليب خالية من المعنى الى مجرد كلمات فارغة.

سيكون من المثير أن نقارن كتاب بيكارد مع عبارات مشهورة حول الصّمت التي ترد، إذا لم تخدعني ذاكرتي، هذه الأيام عند ماترلينك، وأعتقد بأن هناك سبباً وأحداً لهذا، هو أن ماتريلنك لم يكن أبداً مفكّراً حقيقياً. إنه بالأحرى كان إنسانَ أدبٍ نمطي، يطوف ويطوف حول فكرةٍ لم يزعج نفسه أبداً لجعلها محكمة؛ حول فكرة، قد فقدت بالنسبة إليه، هالة لغزها الجذابة فعلاً، لو أنه هدف، في وقت من الأوقات، لجعلها جليّة. بيكارد في وضع معاكس تماماً؛ يوجد بشر قليلون جدّاً اليوم

(1) يقصد هنا الحلول المسيحي.

يفكّرون بتركيز شديد أكثر مما هو يفعل، لكن على المرء أن يطرح الأمر بوضوح؛ إن فكره ليس فكراً يتحرّك منهجياً من مقدماتٍ إلى خاتمةٍ، بل على العكس، إنّه فكرٌ، إذا أمكنني أن أطرح الأمر بهذه الصورة، الذي تتم معاينته. يكون المرء منجذباً تقريباً لوصف فكر بيكارد عبر تعبير تقني، مألوف في عمل كانط واتباعه: إنه تقريباً «بديهة فكرية». لكن عبارة: «بديهة فكرية» ربما تفوح من عقائد لمثالية فلسفية بصورة قوية جدّاً، التي تكون خارجة عن سياق موضوعنا الحالي. لست متأكداً، على الرغم من ذلك، أن فيلسوفاً مثالياً ألمانياً عظيماً سابقاً، كشيللنغ، ليس لديه، في عمل سنواته الأخيرة، تشابهات عميقة معيّنة مع ماكس بيكارد، كما له في الحقيقة مع ميتافيزيقيين معاصرين آخرين عديدين ممن رفضوا هوس بنية نظام هيغل.

علينا أن نلاحظ أيضاً أن الفيلسوف اليوم يميل إلى الإنجذاب، بالقدر الذي لا يكون مجرد أكاديمي، مجرد فيلسوف، أكثر إلى الشاعر. كلّ ما نستطيع رؤيته حولنا ظهور جديد للأطلنطس المفقود [1] من الأعماق. على هذه القارة المكتشفة مجدّداً تلك الوحدة التي هي الفكر كما هو، والشعر كما هو، قد تمت إعادة خلقها في بداياتها؛ وعلى هذا الأطلنطس يمكن بالفعل من دون ريب وضع عمل ماكس بيكارد. من الواضح، بالتأكيد، توجد هناك بعض الارتباكات الكارثية التي علينا أن نتجنّبها هنا. ماكس بيكارد مسيحي، كاثوليكي روماني. وهكذا فإن الأوتار التي عزفت في الروح بواسطة مثل هذا الكتاب تختلف كلّيّاً عن تلك التي ضربها هايدغر أو حتى ريلكه: أنا أعتقد بأن بيكارد نظر بإعجاب إلى مراثي من قلعة دوينو مع تحفّظات عدّة.

---

(1) إشارة إلى جزيرة الأطلنطس الخرافية وكانت في البحر الأطلنطي إلى الغرب من مضيق جبل طارق.

يمكن أن يقول المرء هذا، على الأقل، من دون الخوف من خداع الذات. كل نشاط ماكس بيكارد التأمّلي موجهاً مباشرة نحو نوع من كمال الوجود الممكن، وهذا الكمال معرّض اليوم إلى الخطر ليس فقط من طريق التقدّم التقني، بل وبواسطة إرادة سلطة أولئك الذين تكون التقنيات بالنسبة اليهم مجرّد أدوات عمياء؛ على الرغم من أنهم يواجهون خطر رؤية أن تصبح تلك الأدوات سائدة – مع أنها، بالطبع، سيادة عمياء – من أولئك الذين يُفترض أن يَخدموا. أنا نفسي أشك في ما إذا كان ممكناً المبالغة بمثل هذه التحذيرات، لكن ينبغي التأكيد أنه ليس هناك في فكر بيكارد محاكاة لتشاؤمية نهلستية. تحذيراته هي على العكس، بالمعنى الكامل للعبارة، إثباتات تنبؤية – إنه نبي بالمعنى الذي يكونه بلوي وپيـكِي [1]. عباراته تنبعث من وعي أخروي – من إدراك بالأمور الأخيرة، الموت، الحساب، الجحيم والجنّة. لكن ما هو جدير بالملاحظة هو أن نغمة كتابه ستكون مع ذلك سلمية بشكل رائع جدّاً. الصّمت الذي يمجّده في هذا الكتاب هو ذلك «السلام الذي يفوق كل إدراك».

جابريل مارسيل[2]

(1) لا توجد إشارة واضحة عن من هما المقصودان هنا، لكنني أعتقد بأنهما الكاتب الفرنسي ليون بلوي (1846–1917)، وشَارْل پِيـكِي، الشاعر والكاتب والمفكر الفرنسي الذي عاش في الفترة (1873–1917).

(2) جابريل مارسيل، فيلسوف فرنسي وجودي، عاش في الفترة بين (1889–1973)

مقدمة

عندما نتوقّف عن الكلام، فليس ما يحدث ببساطة الصّمت. إنه أكثر من مجرد انصراف سلبي عن اللغة؛ من محض حالة يمكننا أن ننتجها بالإرداة.

عندما تتوقّف اللغة، يبدأ الصّمت. لكنه لا يبدأ لأنّ اللغة تتوقّف. غياب اللغة يجعل وجود الصّمت ببساطةٍ أكثر وضوحاً.

الصّمت هو ظاهرة مستقلّة. ولهذا فإنّه لا يتطابق مع تعطيل الكلام. إنه ليس مجرّد ظرف سلبي يبدأ عندما يُزال الظرف الإيجابي؛ إنه على العكس كلٌّ مستقلّ، يقتات على نفسه وخلالها. إنه خلّاق، مثلما هي اللغة خلّاقة؛ وهو مكوّن للمخلوقات الإنسانية مثلما هي اللغة تكوينية، لكن ليس بالدرجة نفسها.

ينتمي الصّمت إلى بنية الإنسان الأساسية.

ليس هدف هذا الكتاب، مع ذلك، توجيه القارئ إلى «فلسفة الصّمت»، ولا ينبغي أن يكون مضللاً بلغة متكبّرة. إنها اللغة وليس الصّمت الذي يجعل الإنسان إنسانياً بحق. تمتلك الكلمةُ غلبة على الصّمت.

لكن تصبح اللغة هزيلة إذا فقدت صلتها مع الصّمت. مهمتنا، لهذا، هي أن نكتشف عالم الصّمت المستتر جدّاً اليوم - ليس من أجل الصّمت بل من أجل اللغة.

ربما يبدو مدهشاً أن يقال أيّ شيء حول الصّمت من خلال إطار اللغة، لكن فقط إذا فكر المرء بالصّمت باعتباره أمراً سلبياً تماماً. الصّمت هو، على العكس، إيجابي، وجود حقيقي، ولدى اللغة السلطة لعمل تأكيدات حول كل الواقع.

تنتمي اللغة والصّمت إلى بعضهما: تملك اللغة معرفة عن الصّمت مثلما يمتلك الصّمت معرفة عن اللغة.

سمة[1] الصّمت

1

الصّمت ليس مجرد شيء سلبي؛ إنه ليس مجرد غياب للكلام. إنّه ايجابي، عالم كامل بذاته.

الصّمت يمتلك عظمة لأنّه ببساطة موجود، لأنه يكون. وتلك هي عظمته، وجوده النقي.

ليس هناك بداية للصمت ولا خاتمة: يبدو أنه يملك أصوله في الزمن حين كان كل شيء لا يزال وجوداً خالصاً. إنه يشبه وجوداً أبدياً غير مخلوق.

عندما يكون الصّمت حاضراً، فكما لو أنه لا شيء موجوداً سوى الصّمت دائماً. أينما يوجد الصّمت، يكون الإنسان مراقباً من قبل الصّمت. ينظر الصّمت إلى الإنسان أكثر مما ينظر الإنسان إلى الصّمت. لا يُخضع الإنسان الصّمت للإختبار؛ الصّمت يُخضع الإنسان للإختبار.

لا يستطيع المرء أن يتصوّر عالماً ليس فيه هناك شيء سوى اللغة

(1) ملمح: تُترجم في النسخة الإنكليزية الى «طبيعة» الصمت. وقد فضّلت أن أترجمها طبقاً إلى النسخة الألمانية التي تعني «سمة».

والكلام، لكن يستطيع المرء أن يتخيّل عالماً حيثما لا يكون هناك شيء إلاّ الصّمت.

يحتوي الصّمت كلّ شيء في ذاته. إنه لا ينتظر أيّ شيء؛ إنه حاضر دائماً وبصورة كليّة في ذاته ويملأ تماماً الحيّز الذي يظهر فيه.

إنه لا يتطوّر أو يتكاثر في الزمن، بل الزمن يتكاثر فيه. كما لو بُعثر الزمن في الصّمت، كما لو امتصه الصّمت؛ كما لو كان الصّمت الأرض التي نما فيه الزمن حتى النضوج.

لا يكون الصّمت مرئيّاً، ومع ذلك فوجوده واضح بجلاء. إنه يتمدّد إلى أبعد المسافات، مع إنه قريب جدّاً لنا، بحيث إننا نحسّه بصورة ملموسة كما نتحسّس أجسادنا. إنّه غير محسوس، مع إننا نشعر به مباشرة كما نشعر بالمواد والمصانع. لا يمكن تعريفه بالكلمات، مع إنه محدّد وواضح تماماً.

لا توجد هناك ظاهرة أخرى يتوحّد فيها البعيد والقريب، الممتد والآني، الشامل والخاص كما تتوحّد في الصّمت.

2

الصّمت هو الظاهرة الوحيدة اليوم التي تكون «بلا فائدة». إنه لا يتلاءم مع عالم الربح والمنفعة؛ إنه ببساطة موجود. لا يبدو أنّ له غرضاً آخر؛ ولا يمكن استغلاله.

كلّ الظواهر العظيمة الأخرى تم الاستيلاء عليها من قبل عالم الربح والمنفعة. حتى الفضاء بين السماء والأرض صار مجرّد فجوة لتسافر خلالها الطائرات. تم امتصاص الماء والنار من قبل عالم الربح؛ يتم ملاحظتهما فقط بالقدر الذي يكونان جزءاً من هذا العالم: لقد فقدا وجودهما المستقل.

مع ذلك، يقف الصّمت خارج عالم الربح والمنفعة؛ لا يمكن استغلاله من أجل الربح؛ لا يمكنك أن تحصل على أيّ شيء منه. إنّه «غير منتج». لهذا اعتبر بلا قيمة.

مع ذلك يوجد هناك عون وشفاء في الصّمت أكثر من كلّ «الأشياء النافعة». يظهر الصّمت غير المثمر والعبثي فجأة إلى جانب الهادف كليّاً، ويخيفنا بواسطة لا قصديته ذاتها. إنه يتدخل بالتدفق المنظم للهادف. إنه يعزز اللاملموس، ويخفّف من الأضرار التي يوقعها الاستثمار. إنه يجعل الأشياء كاملة ثانية، عبر إعادتها من عالم الإسراف إلى عالم الكمال. إنه يمنح الأشياء بعضاً من بطلانها[1] المقدّس، لأن ذلك هو ما يكونه الصّمت ذاته: بطلان مقدّس.

3

«إن من الضروري، علاوة على كلّ شيء، أن يترك المرءُ الأرض العذراء غير ملموسة، مبنية بقدسية بحسب القانون الخالص». (هولدرين).

هنا في الصّمت تكون البرية المقدّسة، لأن البرية وعمارة الله واحدة. لا توجد هنا حركة تكون منظمةً بواسطة القانون: الوجود والنشاط هما واحد في الصّمت. كما لو توجب على كلّ مدار النجمة أن يتمركز فجأة في ضوء واحد: تلك هي وحدة الوجود والنشاط المتركّزة في الصّمت.

يمنح الصّمت إلى داخل الأشياء بعض القوة من وجوده المستقلّ الخاص. الوجود المستقلّ في الأشياء يتوطّد في الصّمت. يختفي ذلك الذي يكون متطوراً ومستغلاً في الأشياء عندما تكون الأشياء في الصّمت.

(1) يمكن أن تترجم إلى «إخفاق، عبث أو لا جدوى».

يشير الصّمت، خلال هذه القوة من الوجود المستقلّ، إلى حالة حيث وجود واحد يكون صادقاً: الوضع الإلهي. علامة المقدّس[1] في الأشياء تكون محفوظة من خلال ارتباطها بعالم الصّمت.

(1) يمكن ترجمتها أيضاً بـ«الإلهي» و«السماوي».

ظاهرة الصمت الأساسية

الصّمت هو الظاهرة الأساسية. بعبارة أخرى، إنّه الواقع الأولي الموضوعي، الذي لا يمكن اقتفاء أثره في أيّ شيء آخر. لا يمكن تعويضه بأيّ شيء آخر؛ لا يمكن تبادله مع أيّ شيء آخر. ليس هناك شيء خلفه الذي يمكن أن تكون له صلة به باستثناء الخالق ذاته.

الصّمت أصلي وبديهي مثل الظواهر الأساسية الأخرى؛ كالحب والولاء والموت والحياة ذاتها. لكنّه وجد قبل كلّ هذه الأشياء وهو موجود فيها كلّها. الصّمت هو المولود البكر للظواهر الأساسية. إنّه يشتمل على الظواهر الأساسية الأخرى - الحب، الولاء، الموت؛ ويوجد هناك صمت فيها أكثر من الكلام، يوجد فيها من الخفي أكثر من المرئي. يوجد هناك أيضاً صمت في شخص واحد أكثر مما يمكن استخدامه في حياة إنسان واحد. ولهذا تكون كل عبارة إنسانية محاطة بلغز. ينتشر الصّمت في الإنسان إلى أبعد من حياة إنسانية واحدة. إرتبط الإنسان في هذا الصّمت مع أجيال الماضي والمستقبل.

تعود بنا الظواهر الأساسية، كما كانت، القهقرى إلى بدايات الأشياء؛ لقد تركنا خلفنا ما سمّاه غوته «الظواهر المستنبطة فحسب»، التي نعيش عادة معها. إنّها كالموت، لأننا تُركنا لمصيرنا، نواجه بداية جديدة – ولهذا

فإننا خائفون. «عندما تنجلي الظواهر الأساسية لأحاسيسنا نشعر بنوع من الخجل وحتى نخاف من أنفسنا»، قال غوته. ولهذا يقف الإنسان في الصّمت، مرة أخرى، في مواجهة البداية الأصلية لكلّ الأشياء: كلّ شيء يمكن أن يبدأ مرة أخرى، كلّ شيء يمكن إعادة خلقه. يستطيع الإنسان خلال الصّمت أن يكون في كلّ لحظة من الزمن مع أصول كلّ الأشياء. لا يشارك الإنسان، متحالفاً مع الصّمت، في الجوهر الأصلي للصمت فحسب، بل وأيضاً في الجوهر الأصلي لكلّ الأشياء. الصّمت هو الظاهرة الوحيدة الأساسية التي تكون دائماً في تصرف الإنسان. لا توجد هناك أيّ ظاهرة أساسية أخرى حاضرة في كل لحظة كالصّمت.

الجنس هو الآخر ظاهرة أساسية أخرى موجودة دائماً في متناول الإنسان. بما أنه تم تدمير ظاهرة الصمت حاليا، فإنّ الإنسان يعتمد إلى حد كبير على ظاهرة الجنس الأساسية، ويفشل في ملاحظة أن الجنس يفقد انسجامه ويصير مزيفاً، عندما لا يكون آمناً وبمنجاة من الخطر في مكانه المناسب بين الظواهر الأساسية الأخرى، ولا يكون منظماً بحسب الأصول.

لا يزال الصّمت مثل حيوان قديم منسي منذ بداية الزمن يعلو على كلّ عالم الضجيج التافه؛ لكنّه كحيوان حيّ، وليس كصنفٍ منقرضٍ، فإنه يترصّد، ولا يزال يمكننا أن نرى ظهره العريض يغور إلى أعمق حد بين الأزهار البرّية وأدغال عالم الصخب. كما لو كان هذا المخلوق ما قبل التاريخ ينغمر تدريجياً في أعماق صمته الخاص. ومع ذلك يبدو كلّ ضجيج العالم اليوم أحياناً كطنين حشرات صرف على ظهر الصّمت العريض.

الصمت كأصل للكلام

1

ولد الكلام من الصّمت، من الصّمت الكامل. كان كمال الصّمت قد انفجر لو أنّه لم يكن قادراً على التدفّق في كلام.

يكون الكلام الذي ينبعث من الصّمت كأنه مبرر بالصّمت الذي يسبقه. إنّه الروح التي تشرّعن الكلام، لكن الصّمت الذي يسبق الكلام هو الأم الحبلى التي حُررت من الكلام بواسطة نشاط الروح الخلّاق. علامة هذا النشاط المبدع للروح هو الصّمت الذي يسبق الكلام.

حينما يبدأ الإنسان التحدّث، تنبعث الكلمة من الصّمت عند كل بداية جديدة. إنها تأتي بوضوح وبشكل خفي جدّاً، كما لو أنها كانت مجرّد النقيض للصمت، مجرّد صمت مقلوب. الكلام في الواقع هو المعاكس للصمت، تماماً مثلما الصّمت هو عكس الكلام.

هناك شيء صامت في كل كلمة، كدليل ثابت على أصل الكلام. وفي كلّ صمت هناك شيء ما من الكلمة المنطوقة، كدليل ثابت على سلطة الصّمت لخلق الكلام. لهذا ارتبط الكلام بالصّمت.

ليس قبل أن يتحدث الإنسان إلى آخر، حتى عرف أن الكلام لم يعد ينتمي إلى الصّمت بل إلى الإنسان. إنه يتعلّمه من خلال (قول) الـ أنتَ لشخصٍ آخرٍ، لأن الكلمة تنتمي في البداية من خلال الـ أنت إلى الإنسان، ولم تعد (تنتمي) إلى الصّمت. عندما يتحدث شخصان إلى بعضهما، فإن شخصاً ثالثاً يكون، على الدوام، حاضراً: الصّمت يصغي. ذلك هو ما يمنح اتساعاً للمحادثة: عندما لا تتحرّك الكلمات داخل الحيّز الضيق المشغول من قبل شخصين متحدّثين فحسب، بل تأتي من البعيد، من المكان حيثما يصغي الصّمت. ذلك يمنح الكلمات كمالاً جديداً. لكن ليس ذلك فقط: الكلمات تكون مَنطوقة كأنها كانت من الصّمت، من ذلك الشخص الثالث، ويستقبل المستمع أكثر مما يستطيع المتحدّث وحده قادراً على تقديمه. الصّمت هو المتحدّث الثالث في مثل هذه المحادثة. يكون ختام المحاورات الأفلاطونية دائماً كما لو كان الصّمت ذاته يتحدث. يبدو أن الأشخاص الذين كانوا يتحدثون صاروا مستمعين إلى الصّمت.

2

عند بداية خلق الكون، قيل لنا، إن الله ذاته تحدث إلى الإنسان. كما لو أن الإنسان لم يجرؤ حقاً بعد على أن يقول الكلمة، لم يجرؤ بعد على حيازة الكلمة؛ كما لو أن الله، من خلال الحديث معه، أراد أن يرشد الإنسان إلى عادة استخدام الكلمات:

«عندما نتذكّر جمال، عظمة وتنوّع اللغة، تجوب كلّ الأرض، يبدو هناك شيء ما فوق إنساني فيها، شيء لا يبدو أنه يملك أصوله في الإنسان، شيء أفسد ودمر الإنسانُ كمالَه في الواقع». (يعقوب غريم).

أصل اللغة أمر لا سبيل إلى فهمه، يشبه ذلك الأمر في كلّ مخلوق، لأنه جاء من حب الخالق الكامل. فقط حينما يتوجّب على الإنسان

أن يعيش باستمرارٍ، في حبّ كامل، يمكنه أن يعرف أصل اللغة وكلّ المخلوقات.

3

تنبعث الكلمة المباشرة كلّياً والمعرّفة بوضوح من مجال الصّمت ما قبل التاريخ البعيد، اللانهائي.

الصّمت يكشف عن نفسه في آلاف الأشكال التي يتعذّر وصفها: في سكون الفجر، في تطلّع الأشجار الهادئة نحو السماء، في هبوط الليل الخفي، في التغير الصامت للفصول، في سقوط أشعة القمر، تترشّح في الليل مثل مطر الصّمت، لكن، فوق كل ذلك، في صمت الروح الداخلية، - كلما تكون هذه الأشكال من الصّمت بلا اسم، تكون الكلمة التي تنبعث من وتتعارض مع الصّمت المجهول أوضحَ ومؤكدة.

ليس هنالك عالم طبيعي أعظم من عالم الصّمت الطبيعي. لا عالم للروح أعظم من عالم الروح اللغوي الذي صاغه عالم الصّمت الطبيعي.

الصّمت هو عالم بحدِّ ذاته، ومن عالم الصّمت هذا يتعلم الكلام ليصوغ نفسه إلى عالم. عالم الصّمت وعالم الكلام يناقض أحدهما الآخر. لهذا يكون الكلام نقيضاً للصمت، لكن ليس كعدو. إنّه الجانب الآخر فقط، المعاكس للصمت. يتمكّن المرء أن يسمع الصّمت يرنّ خلال الكلام. الكلام الحقيقي هو في الواقع ليس إلا صدى الصّمت.

4

لا يكون صوت الموسيقى، كصوت الكلمات، معارضاً للصمت، بل بالأحرى موازٍ له. كما لو أن أصوات الموسيقى كانت تتحرّك فوق سطح الصّمت. الموسيقى هي الصّمت، التي تبدأ تصدح في الحلم.

لن يكون الصّمت مسموعاً أبداً أكثر مما حين يتلاشى آخر نغم للموسيقى.

الموسيقى هي أبعد مدى، ويمكنها أن تحتل كل الفضاء. هذا لن يحدث في الواقع، لأن الموسيقى تحتلّ الفضاء ببطء شديد، باستحياء، وإيقاعية، وتعود دائماً إلى الألحان الأساسية نفسها، بحيث قد يبدو أن أصوات الموسيقى لم تبتعد على الإطلاق، وأن الموسيقى كانت في كل مكان، ومع ذلك، في مكان معيّن محدودٍ دائماً. إنّ بُعد وقرب المكان، اللامحدود والمحدود، في الموسيقى، تكون كلّها في وحدة رقيقة بحيث تكون سلوى وبركة للروح. لأنه مهما تتمدّد الروح إلى حد بعيد في الموسيقى فإنّها تكون محمية في كلّ مكان وتعاد ثانية إلى موطنها بأمان. ذلك هو أيضاً لماذا تمتلك الموسيقى مثل هذا التأثير المهدّئ على الناس المضطربين: إنها تجلب فسحة إلى الروح تكون فيها الروح بلا خوف.

5

اللغة هي عالم، ليست مجرد ملحق بعالم آخر. إنها تملك كمالاً يتجاوز حدود النفعي. يوجد هناك في اللغة أكثر مما يكون ضرورياً لمجرد التفاهم والمعلومة.

صحيح أن اللغة تخصّ الإنسان، لكنّها أيضاً تنتسب إلى نفسها. يوجد فيها ألم وفرح وحزن أكثر مما يستطيع المرء أن يحصل منها لنفسه. كما لو أنها تحافظ، مستقلّة عن الإنسان، على ألم، حزن، وفرح وغبطة كافية لنفسها. تخلق اللغة أحياناً شعراً بمحض اختيارها وكأن كلّ شيء كان لنفسها.

6

يمكن أن يوجد الصّمت من دون الكلام، لكنّ الكلام لا يمكن أن يوجد من دون الصّمت. ستكون الكلمة من دون عمق إذا كانت خلفيتها

في الصّمت مفقودة. مع ذلك فالصّمت هو ليس أكثر من كلام؛ على العكس، الصّمت لحاله، عالم الصّمت من دون كلام، هو العالم قبل الخلق، عالم الخلق غير المكتمل، عالم تهديد وخطر للإنسان. ليس قبل أن ينبعث الكلام من الصّمت حتى انبعث الصّمت مما قبل الخلق إلى الخلق، من قبل التاريخ إلى تاريخ الإنسان، وصار في علاقة وثيقة مع الإنسان، ليصبح جزءاً من الإنسان وجزءاً شرعياً من الكلام. لكنّ الكلام هو أكثر من الصّمت، لأنّه تم التعبير عن الحقيقة أولاً بصورة ملموسة بواسطة الكلام، وليس بواسطة الصّمت.

من خلال الكلام صار الإنسان أولاً إنساناً: «هل هي مصادفة أن الإغريقيين عرّفوا طبيعة الإنسان كحيوان ناطق[1]؟ التأويل اللاحق لهذا التعريف للإنسان بمعنى «الإنسان العاقل»، الكائن الحي الموهوب بالعقل، ليس خطأً، إلا أنه يخفي التربة الاستثنائية التي استنبط منها هذا التعريف للوجود. الإنسان يكشف عن نفسه ككائن يتحدث». (هايدغر).

يكون الصّمت متحققّاً فقط حين ينطلق الكلام من الصّمت. الكلام يمنحه المعنى والشرف. خلال الكلام حوِّل الصّمت، ذلك الوحش البري ما قبل الإنساني، إلى شيء إنساني ومدجّن.

الوجه الظاهري للكلام هو كالتالي: إنه يشبه كتلاً صلدة من حمم انفجرت من وجه الصّمت، جاثمة بصورة مبعثرة ومرتبطة بعضها بالبعض الآخر بواسطة سطح الصّمت.

وكما أن حجم البحر أكبر من كتلة الأرض، فإن حجم الصّمت أكبر من حجم الكلام. لكن مثلما لدى اليابسة حياة أكبر من البحر، فالكلام هو أكثر قوة من الصّمت؛ إنّ لديه كثافة من الوجود أعظم.

(1) ξωον λόγων έχων ترجمة هذه العبارة فيها بعض الصعوبة التي تعني حرفياً «حيوان ذو كلام وعقل».

7

الصّمت محبوك في ذات نسيج الطبيعة الإنسانية، لكنه الأساس الوحيد الذي يظهر عليه العُلِويّ.[1]

الصّمت في العقل الإنساني هو مجرّد معرفة الإله الخفي[2].

الصّمت في الروح الإنسانية هو مجرّد الإنسجام الصامت مع الأشياء والإنسجام المسموع للموسيقى.

الصّمت في الجسد الإنساني هو ينبوع الجمال.

لكن كما يكون الجمال أكثر من الجسد المادي، والموسيقى أكثر من أرض الروح المسموعة، والله الموحى به أكثر من الإله الخفي، فإنّ الكلام هو أكثر من صمت.

8

الإنسان غير قادر أبداً، بمحض إرادته واختياره، على خلق الكلام من الصّمت. الكلام مختلف تماماً جدّاً عن الصّمت، بحيث إنّ الإنسان لم يكن قادراً أبداً على أن يقوم بالقفزة من الصّمت إلى الكلام.

إن ظاهرتين معاصرتين كالصّمت والكلام متّحدتان بإحكام كبير، كما لو أنهما ينتميان إلى بعضهما، لم يكن أبداً بالإمكان تحقيق الأمر بواسطة الإنسان، بل من خلال عمل الله ذاته فقط. اقتران الصّمت والكلام هو علامة لتلك الحالة الإلهية التي يتّحدان فيها بصورة كاملة.

كان من الحتمي أن ينبعث الكلام من الصّمت. لأنّ الكلمة المقدّسة

---

(1) يمكن ترجمتها ايضاً الأسمى، الفوقي، الاعلى، الأرفع.

(2) تكرّرت العبارة الأخيرة بالإغريقية التي تعني أيضاً الإله الخفي، فاكتفيت بالعبارة التي بعدها منعاً للالتباس Deus absconditus.

نزلت من الله، منذ المسيح، على الإنسان، «الصوت الصغير الساكن»، طريقة تحوّل الصّمت إلى كلام حُدِّدت إلى الأبد. الكلمة التي ظهرت منذ ألفي عام كانت في طريقها إلى الإنسان من بداية الزمن، ولهذا كان هناك من البداية ذاتها شقٌّ بين الصّمت والكلام. كان الحادث قبل ألفي عام خارقاً للغاية بحيث شُقَّ كلّ الصّمت منذ القدم بواسطة الكلام. ارتعش الصّمت من الحادث مقدّماً وانقسم إلى شقّين.

الصّمت واللغة والحقيقة

1

اللغة هي أكثر مما تكون صمتاً، لأن الحقيقة تجلّت في اللغة. توجد حقيقة في الصّمت أيضاً، لكنها ليست سمة للصمت كما هي للّغة بحيث تكون الحقيقة موجودة فيها. توجد الحقيقة في الصّمت فقط بمقدار مساهمة الصّمت في الحقيقة التي توجد في نظام الوجود عموماً. الحقيقة في الصّمت حيادية وهاجعة، لكنها في اللغة يقظة جدّاً؛ وفي اللغة اتّخذت قرارات فعّالة تتعلّق بالحقيقة والزيف.

توجد اللغة، في ذاتها وبطبيعتها، لفترة قصير فقط، مثل انقطاع في استمرارية الصّمت. إنها الحقيقة التي تمنحها الإستمرارية، التي تمكّنها لتصبح عالماً خاصّاً بها؛ لأنّ اللغة تستقبل هذه الإستمرارية من الحقيقة فأنها لا تندثر. تحوّل الصّمت، الذي جاءت منه اللغة، الآن، إلى لغز يطوّق الحقيقة.

اللغة من دون الحقيقة ستكون ضباباً منتشراً من الكلمات فوق الصّمت؛ من دون الحقيقة فإنها ستنهار في دندنة غامضة. إنها الحقيقة التي تجعل اللغة واضحة ومتينة. الخط الذي يفصل بين الحقيقة والزيف

هو السند الذي يمنع اللغة من الإنهيار. الحقيقة هي السقالة التي تمنح اللغة موضع قدم مستقل مقابل الصّمت. اللغة تصبح عالماً بذاتها، كما قلنا مسبقاً؛ واللغة ليس لها عالم خلفها فحسب، عالم الصّمت، بل عالم في متناول اليد - عالم الحقيقة.

مع ذلك، ينبغي أن تحتفظ كلمة الحقيقة بصلة مع الصّمت، لأن الحقيقة من دونه ستكون خشنة وصلدة جدّاً. حينها ستبدو كما لو كانت هناك حقيقة واحدة منفردة فقط، طالما سيقترح التزمت بالحقيقة المنفردة رفض العلاقات المتداخلة لكل الحقائق. النقطة الجوهرية حول الحقيقة هي أنها تتآزر كلّها في سياق شامل.

حميمية الصّمت تعني أيضاً حميمية التسامح وحميمية الحب، لأن الأساس الطبيعي للتسامح والحب هو الصّمت. من المهم أن يكون هذا الأساس الطبيعي هناك، لأنّ هذا يعني أنّ ليس على التسامح والحب أن يخلقا أولاً الوسط الذي يظهران فيه.

2

«ليس هناك حقيقة» قال أحدهم. قال الآخر: «لكنك نفسك تفترض أن هناك حقيقة حيث لا حقيقة هناك».

القوة المنطقية التي ظهرت في هذه الجملة هي إشارة إلى أنّ الحقيقة جليّة، خلال المنطق الذي يكون في اللغة الموجودة من البداية ذاتها، بصورة آلية في اللغة. تحمل اللغة خلال بنيتها ذاتها الحقيقة إلى الإنسان: تفرض الحقيقة نفسها عليه قبل أن يطلبها لنفسه.

هذه دلالة أخرى على أنّ الإنسان لا يقتضي اللغة لمصلحته الخاصّة، بل إنها منحت إليه من قبل الله الذي هو الحقيقة ذاتها.

تنسجم اللغة بفعل بُنيتها ذاتها مع الحقيقة التي جُعلت جليّة فيها.

ولهذا لكل شيء باعث للتعبير عنه في اللغة، لأنه يجد كمالاً في اللغة ويرتفع إلى مستوى عالٍ خلال الحقيقة. هناك ميل من الصّمت نحو اللغة، نحو حقيقة الكلمة؛ القوة الجاذبة لهذا الميل يدفع الحقيقة حتى أبعد من اللغة نحو الأسفل في حياة العالم الحيّة.

الحقيقة حاضرة كواقع موضوعي في منطق اللغة، وهذا الواقع الموضوعي المحدّد يدلّ الإنسان على شيء خارج ذاته، إلى الموضوعي عموماً. عندما يتحدث الإنسان فإنه يذكّر بقطعية الحقيقة المحددة موضوعياً.

خلال هذه الموضوعية التي تكون في اللغة، يوجد هناك في اللغة أكثر من الفرد (أعني الذات) يمكن إخراجه، أكثر من احتياجات الفرد. هناك واقع موضوعي بقدر كبير في اللغة بحيث إنه سيستمر حتى نهاية التاريخ الإنساني وما بعده.

وبسبب هذه الموضوعية في اللغة، يُعبّر عنها غالباً أكثر مما ينوي المتكلّم، ولهذا يتعلم الإنسان من اللغة غالباً أكثر مما هو يضع فيها من أفكاره الخاصّة.

لهذا يكون الأنسان رفيعا عبر اللغة لأنها أكثر من الإنسان ذاته.

إنه جزء من طبيعة الإنسان ألا يكون قادراً على التعبير عن كل الحقيقة بالكلمات. ليملأ الفضاءات الفارغة في اللغة التي لم تُملأ بحقيقة، يعود عليه بالأسى. يمكن أن ينتشر الحزن من كلمةٍ إلى الصّمت الذي ينغمر فيه للراحةِ والنسيان.

كان المسيح وحده قادراً على ملء الكلام بالحقيقة حتى الطفح. ولهذا السبب لا تكون كلماته كئيبة: ففيه فضاء اللغة ليس مملوءاً إلا بالحقيقة. ليس هناك مكان متروك للأسى أو للكآبة.

3

هناك إشعاع يطوق الحقيقة، وهذا الإشعاع هو علامة على أنّ الحقيقة تمتلك باعثاً للتمدّد في كل الاتجاهات.

الإشعاع المطوّق للحقيقة هو الجمال. بهذه الطريقة تكون الحقيقة قادرة على أن تنفذ إلى أبعد وأعمق؛ يَعدُّ إشعاعُ الجمالِ الطريقَ لأجل الحقيقة؛ إنه يحتل كلّ فضاءات الحقيقة ومن أجل الحقيقة مسبقاً. تكون الحقيقة حاضرة بالفعل في كل مكان، في بعض من الكفّار[1]

يكون الجمال موجوداً في الصّمت أيضاً؛ إنّه موجود قبل كلّ شيء في الصّمت. الصّمت سينغمر مدفوعاً إلى الأسفل إلى ظلامه الخاصّ، تَحت إلى الهاوية، ساحباً معه إلى الأسفل الكثير الذي ينتمي إلى سطوع الأرض، إن لم يكن الجمال حاضراً في الصّمت أيضاً. الجمال يمنح الخفة والهواء إلى الصّمت، بحيث إنه يصبح جزءاً من سطوع الأرض أيضاً. يحرّر الجمال الصّمت من ثقله، ويرفعه إلى ضوء الأرض ويجلبه إلى الإنسان. إشعاع الجمال الذي قام على الصّمت هو هاجس الإشعاع المتأصّل في كلمة الحقيقة.

الكلمة، الحقيقة، وإشعاع الجمال الكامل تكون متآلفة في الرّب - الإنسان. إنها لا تكون في (تراتبية) واحدة خلف الأخرى، أو حتى واحدة إلى جانب الأخرى، بل جميعها تكون واحدة في تآلف جميل. وفي هذه الوحدة يلتقي كل التاريخ في ذات[2] واحدة: بداية الإنسان، إثمه، وخلاصه.

---

(1) باللاتيني في الأصل، كما أنها في النص الألماني الأصلي غير مكتوبة بالخط المائل. partibus infidelium In .

(2) فضّلت ترجمتها هنا إلى ذات بدلّا من شخص أو فرد Person .

الصّمت في الكلام

الكلام والصّمت ينتميان إلى بعضهما. أن ترى الكلام من دون الصّمت مثلما ترى حمقى شكسبير من دون صلابة أبطال شكسبير، أو مثلما ترى شهادة القديسين في لوحات القرون الوسطى من دون هيئاتهم. الكلام والصّمت، البطل والأحمق، الشهيد وهيئته، تكوّن كلّها وحدة.

ينبغي أن يبقى الكلام في صلة مع الصّمت الذي بعث نفسه منه. أن يعود الكلام إلى الصّمت أمر يخصّ الطبيعة الإنسانية، لأن شأن الطبيعة الإنسانية أن تعود إلى المكان الذي جاءت منه.

الكلام الإنساني لا تحدّده الحقيقة فقط، بل يحدّده الخير أيضاً: في الخير يعود الكلام إلى أصله.

من المهم أن يبقى الكلام بصلة مع الصّمت عبر الخير[1]، لأن هذا يعني أن الخير، منذ البداية ذاتها، هو جزء من نسيج كلّ كلمة، يوجد هناك في بنية اللغة ذاتها ميل نحو الخير. كان خيراً عظيماً في الكلمة التي ارتبطت بالصّمت العظيم.

الكلمات التي انبثقت فحسب من كلمات أخرى هي صلبة وعدوانية.

---

(1) يمكن ترجمة الخير هنا أيضاً الى «الصلاح، الاستقامة.. إلخ».

مثل هذه الكلمات هي أيضاً وحيدة، وجزء كبير من الكآبة في العالم اليوم مردّه واقع أنّ الإنسان جعل الكلمات وحيدة من خلال عزلها عن الصّمت. هذا التنصّل من الصّمت هو عنصر من الذنب الإنساني، والكآبة في العالم هي التعبير الظاهري لهذا الذنب. اللغة مطوّقة بإطار مظلم من الكآبة، ولم تعد مطوّقة بإطار الصّمت.

ولهذا، فالصّمت حاضر في اللغة، حتى بعدما انبثقت اللغة من الصّمت.عالم اللغة مبني على وفوق عالم الصّمت. يمكن أن تتمتّع اللغة بالأمن فقط حين تتنقّل بحرّية في الكلمات والأفكار بمقدار ما تمتدّ رحابة عالم الصّمت تحت. تتعلم اللغة من سعة اللغة أن تحقّق اتساعها الخاصّ. يكون الصّمت بالنسبة إلى اللغة ما للشبكة المشدودة الممتدة تحت بالنسبة للبهلوان[1].

يحتاج العقل، العقل اللامحدود الموجود في اللغة، إلى أن يملك تحته لا نهائية الصّمت، فيتمكّن من بناء قنطرته اللامحدودة الخاصّة عليه. من الممكن تماماً بالنسبة إلى العقل أن يكون لا نهائياً ومتعذرَ قياسه بمحض إرادته. لكن الصّمت تحت يساعده ليتحرك بحرية في لا نهائيته.

الصّمت هو الأساس الطبيعي للانهائية العقل المتعذرة القياس. إنه، على أيّ حال، الأساس الطبيعي للعقل: الذي لا يوصف بلغة العقل، يربط العقل بالصّمت، يجعله في بيته في عالم الصّمت.

ينبغي على اللغة أن تبقى في علاقة حميمة مع الصّمت. تجعل طريقة الصّمت الشفافة المحوّمة اللغةَ نفسها شفافة ومحوّمة. أنها مثل غيمة مضيئة فوق الصّمت، غيمة مضيئة فوق بحيرة الصّمت الساكنة.

يقدم الصّمت مصدراً طبيعياً لإعادة ابتكار اللغة، ينبوعاً للتجديد

---

(1) إشارة إلى لاعب السيرك الذي يمشي على حبل مشدود متوتر وتحته شبكة تحميه عند سقوطه من الحبل.

والتنقية من الرداءة التي ساعدت اللغةُ ذاتها من ظهورِها. تحبس اللغة في الصّمت أنفاسها وتملأ رئتيها بالهواء النقي والأصيل.

حتى وإن بقيت اللغة نفسها، فإنها قادرة على الظهور كشيء أصلي وجديد كما تظهر من الصّمت. الحقيقة، التي يعبر عنها دائماً بالكلمات نفسها، لا تصبح لهذا السبب، ثابتة.

تستطيع الروح أيضاً أن تمنح إلى اللغة جرعات منعشة من الحياة الجديدة. هناك نوع من الإنعاش الذي يأتي من الاتصال بالصّمت الطبيعي، ونوع آخر من الذي تنتجه الروح. يتحقّق الكمال عندما تلتقي القوة الأصلية وإنعاش الصّمت الطبيعي والروح وتُجمع في شخص، كما في دانتي وغوته:

> «الآن انهيتَ مهمتكَ المعينة هنا تَحت، أيّها العقل الحادّ، وشمس لعوبة رقيقة تدفّقت في آخر عاصفة مسائية على صدرك وملأت العاصفة بالورود والذهب. العالم وكلّ الأشياء الدنيوية التي صاغتها العوالم المتلاشية كانت صغيرة جدّاً ومضيئة بالنسبة إليك. لأنك كنت تبحث خلف الحياة عن شيء أسمى من الحياة، ليست نفسك ذاتها، ليس الوجود الفاني أو السرمدي بل الأزلي، الأول، الله - كان تجلي الأشياء في هذا العالم السفلي، كلاهما الشر والخير، غير مبالٍ بك. الآن أنت فن راقد في عالم الوجود الحقيقي، أخذ الموت من قلبك المظلم كل غيمة الحياة المتقدة والضوء الأزلي يقف محجوباً، الضوء الذي بحثتَ عنه طويلاً؛ وأنت، أحد اشعاعاتها سكنتَ مرة ثانية في النار».
>
> (جان باول: تيتان)[1].

(1) جان باول: كاتب ألماني، مؤلف رواية تيتان بأربعة أجزاء، صدرت بين الأعوام 1800-1803.

تلك الكلمات لجان باول هي مثل بالونات مكوّرة تمت السيطرة عليها بصورة خفيّة من الأسفل بواسطة الصّمت. كما لو أن كل شيء قيل هنا بصوتٍ عالٍ في كلمات قد حدثت مسبقاً في الصّمت، لأنّ ذلك هو ما يمنح الكلمات خاصّية قطعيتها الأكيدة، حميميتها، سموّها. تقلدُ الكلماتُ مثلما في الحلم الحركاتِ التي حدثت فعلاً في الصّمت.

تتخذ اللغة عند غوته سلوكاً أكثر وعياً تجاه الصّمت مما عند جان باول. إنه انتصار اللغة على الصّمت الذي هو مهم بدرجة كبيرة، ليس بمعنى انتصار متبجّح، بل بمعنى وعي وكبرياء إنسان يعرف أنها اللغة التي جعلته أولاً إنساناً والذي يظهر لذلك فخوراً باستخدامه للكلمات.

(2)

يعيش الإنسان بين عالم الصّمت الذي جاء منه وعالم الصّمت الآخر الذي يذهب إليه - عالم الموت. تعيش اللغة البشرية أيضاً بين هذين العالمين للصمت وتصان بهما. لذلك السبب تملك اللغة صدًى مضاعفاً: من المكان حيث جاءت ومن مكان الموت.

تستمد اللغة البراءة، البساطة، والأصالة من الصّمت الذي أتت منه، لكن أجلها القصير، هشاشتها، وحقيقة أنّ اللغة لا تضاهي أبداً الأشياء التي تصفها، تأتي من الصّمت الثاني، من الموت.

معالم كلا العالمين جليّة في لغة جان باول: البراءة والأصالة، وبالوقت نفسه الاستعداد للمغادرة، وسرعة زوال اللغة الخاطف.

اللغة في العالم الحديث بعيدة عن كلا عالمي الصّمت. إنها تتدفّق من الضجيج وتتلاشى في الضجيج. لم يعد الصّمت اليوم عالماً مستقلاً من نوعه؛ إنه ببساطة المكان الذي لم يتسرّب إليه الصخب بعد. إنه مجرد توقّف لاستمرارية الصخب، مثلما وصلة تقنية في آلة الضجيج.

ما هو الصّمت اليوم؟ توقّف آني للصخب. لم يَعُد لدينا صمت محدّد ولغة محدّدة، لكن ببساطة كلمات قد قيلت وكلمات لم تنطق بعد. لكن تلك (الكلمات) موجودة أيضاً منتظرة مثل أدوات لم تُستخدم؛ أنها تقف منتظرة هناك بملل أو بصورة متوعّدة.

الصّمت الآخر، صمت الموت، هو غائب في اللغة اليوم أيضاً، مثلما يكون الموت الحقيقي غائب في العالم الحديث. لم يعد الموت عالماً مستقلاً بنفسه، بل مجرد شيء سلبي. النهاية المتطرّفة لما نسميه الحياة. الحياة المفرغة إلى آخر بقية. ما هو الموت اليوم؟ الموت نفسه تم قتله. يختلف الموت اليوم تماماً عن ذلك الموت الذي تتحدث عنه العبارة التالية:

> «يموت الإنسان مرة واحدة فقط في حياته، وحيث أنه يفتقر إلى خبرة الحَدث فانّه يعمله بغير اتقان [1]، وبغية أن يموت بنجاح، فإنّ عليه أن يتعلّم كيف يموت باتباع تعليمات الناس المجرّبين الذين يعرفون أن يموتوا في معمعة الحياة. الزهد يمنحنا هذه الخبرة عن الموت».
>
> (فلورنسكي)[2]

عندما لا تعود اللغة مرتبطة بالصّمت فأنّها تفقد مصدر انتعاشها وتجدّدها وكذلك شيئاً من جوهرها. تبدو اللغة تتحدث بصورة أوتوماتيكية، انطلاقاً من قوّتها الخاصّة، ومفرّغة ومبعثرة نفسها، تبدو أن تكون مستعجلة نحو النهاية. هناك شيء صعب ومستعصٍ في اللغة اليوم، كما لو أنها تبذل جهداً كبيراً لتبقى حيّة على الرغم من خوائها. هناك شيء قانط فيها أيضاً، كما لو أنها تتوقّع أن يقودها خواؤها نحو

---

(1) «أو» يفسدهُ.

(2) هو بافل فلورنسكي اللاهوتي والفيلسوف الروسي وعالم الرياضيات الذي عاش في الفترة 1882– 1943.

نهاية عنيدة، وأن هذا العناد واليأس هما اللذان يجعلانها قلقة جدّاً. بإبعادها عن الصّمت فقد جعلنا اللغةَ يتيمةً. اللغة التي نتحدث بها اليوم لم تَعُد اللغة الأم، بل على العكس لغة يتيمة. يبدو الإنسان أحياناً كما لو أنّه يحسّ بالعار من اللغة التي انتزعها من أبويه. يشعر الإنسان بأنّه يجرؤ بالكاد على إيصال كلماته إلى الآخر. إنه يتكلّم معظم الوقت إلى نفسه، كما لو أنّه يريد أن يسحق، يهشّم ويحطّم الكلمات التي يتكلّمها ويرميها مثل الأنقاض إلى تحتٍ في خواء روحه.

فقط في لغة الشعراء لا تزال تظهر الكلمة الحقيقية، الكلمة المرتبطة بالصّمت أحياناً. إنها كالشبح، مليئة بالحزن الذي هو مجرّد شبح وينبغي أن يختفي ثانية. الجمال هو غيمة معتمة تظهر فيها مثل هذه الكلمات فحسب لتختفي ثانية.

3

تغرق اللغة ثانية في الصّمت. يمكن أن تكون منسية. يبدو أن ثمّت نسياناً في اللغة، بحيث لا ينبغي أن تكون اللغة عنيفة جدّاً. لذلك تكون الهيمنة التي تملكها اللغة على الصّمت، ملطّفة.

إنّ غوص الكلمات في الغياب كما لو أنّه كان علامة على أن الأشياء تنتسب إلينا بصورة مؤقتة فقط وتمكن إعادتها إلى حيثما أتت.

عندما تغوص كلمة في الغياب، تكون منسية، وهذا النسيان يحضّر الطريق للتسامح. إنها علامة على أن الحب منسوج في بُنية اللغة ذاتها: تنغمر الكلمات في نسيان الإنسان بحيث قد يُسامِح هو في النسيان أيضاً.

اختفاء ونسيان الكلمة يعدّ الطريق إلى الموت أيضاً. تماماً مثلما تختفي الكلمة التي تجعلنا بشراً، كذلك يموت الإنسان نفسه: الموت هو منسوج أيضاً في بنية اللغة نفسها.

تبدو اللغة اليوم كما لو أنّه تم تجريدها من نسيانها: كلّ كلمة موجودة في مكان ما في الصخب العام للكلمات حولنا. يظهر كلّ شيء في الصخب العام للكلمات للحظة، لتختفي ثانية فحسب. كلّ شيء موجود هناك في الوقت نفسه، ومع ذلك غير موجود هناك على الإطلاق. لم يعد هناك أيّ حضور مباشر للكلمة ولهذا السبب لا نسيان. لم يعد فعل النسيان من عمل الإنسان مباشرة، بل يواصل سيره خارج سيطرته في الضجيج العام للكلمات المتزاحمة مع

بعضها البعض الآخر. لكن ذلك ليس هو النسيان على الإطلاق، بل مجرد اختفاء. ولذلك فليس هناك تسامح أيضاً في العالم اليوم؛ طالما لا يستطيع المرء أن يتخلص الآن من كلمة أو شيء، إنّه ملزم أن يظهر دائماً في مكان ما. إنها حقيقة أيضاً أن المرء لا يمتلك اليوم كلمة أو شيئاً فعلاً، ولهذا السبب يكون الناس مضطربين جدّاً.

4

قلنا أنّ اللغة تأتي من الصّمت وتعود إلى الصّمت. كما لو كان خلف الصّمت الكلمة المطلقة، التي تتحرّك نحوها اللغة الإنسانية خلال الصّمت. كما لو كانت الكلمة البشرية مدعومة بالكلمة المطلقة. لأنّ الكلمة الإنسانية لا تتبعثر هناك كالغبار. كان يمكن للإنسان أن يستعيد باستمرار مجال اللغة لو أنها لم تكن مصانة من الهجوم في الكلمة المطلقة. تبدو كلّ الكلمات البشرية متحرّكة حول تلك الكلمة.

الصّمت يشبه تذكّر تلك الكلمة. اللغات المختلفة تشبه محاولات مختلفة للعثور على الكلمة المطلقة. كما لو أنّ الكلمات قد وافقت على تقسيم نفسها على لغات مختلفة، لكي تحاول اكتشاف الكلمة المطلقة من اتجاهات مختلفة. تبدو اللغات أن تكون مثل محاولات مختلفة للعثور على الكلمة المطلقة.

لو كانت هناك لغة واحدة فقط، فإن هذه اللغة ستكون في وضع غالب بقدر كبير جدّاً فيما يتعلق بالصّمت. ستبدو اللغة شبيهة إلى درجة كبيرة أرضاً احتلت من الصّمت، والصّمت يخضع بصورة كبيرة جدّاً إلى إرادة اللغة. ربما يصبح الإنسان مزهواً حول هذا الإنتصار الاستثنائي. في الحقيقة إنه يصبح مزهواً عندما يملك كل البشر لغة واحدة:

«هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة، وهذا ما أخذوا يفعلونه. والآن لا يكفّون عمّا هَمُّوا به حتّى يصنعوه». (سفر التكوين، 6: 11)[1].

حالما توجد هناك لغات عدّة فأنها تكون، مع ذلك، مترابطة. ولا واحدة منها تكون مقصيّة؛ كلّ لغة هي مجرد واحدة بين العديد.

لم يعد الأمر الاستثنائي الآن هو وجود لغة واحدة، بل أن يتم التأمّل بتلك الحقيقة خلال لغات عدّة. توجد هناك الآن وحدة جديدة للغات قائمة على واقع أن يتم التعبير عن الحقيقة الواحدة خلال كلّ اللغات.

---

(1) استشهد الكاتب بصورة خاطئة من الإنجيل، حيث أشار إلى سفر التكوين 2:6 والصحيح هو 11:6.

الإنسان بين الصّمت والكلام

1

في اللحظة، قبل أن يتكلّم الإنسان، كانت الكلمة لا تزال تحوم حول الصّمت الذي غادرته للتو؛ إنها تحوم بين الصّمت والكلام. لا تزال الكلمة حائرة إلى أين تتّجه: فيما إذا تعود كلّياً إلى الصّمت وتتلاشى هناك، أو فيما تقوم بانفصال واضح عن الصّمت بواسطة التحول إلى صوت. تقرر الحرية الإنسانية إلى أين ستذهب الكلمة.

لا تكون الكلمة المنطوقة، كمغاير للكلمة التي تكون في الصّمت، مجرد اتصال مع شخص آخر. إنّها تختلف نوعيّاً عن الكلمة الموجودة في الصّمت. لا تكون الكلمة، بتحوّلها إلى صوت، مستخرجة من الصّمت ومرسلة إلى الآخرين فحسب، بل تظهر بالأحرى مغايرة ضد الكلمات الأخرى التي لا تزال موجودة في الصّمت. تعزل الكلمةُ المنطوقةُ فكرةً أكثر مما تكون هي معزولة في الصّمت، ففي اللحظة التي يتم التحدث بها بصورة عالية، فإنها تقف معزولة وتستلم قيمة مميزة خاصّة بها. يمكن أن تكون فكرة موجودة في الصّمت مميزة بصورة واضحة جدّاً عن كلّ الافكار الأخرى، لكن القرار لم يُتخذ بعدُ نحو أي

فكرة أو أفكار ينبغي أن تنال أهمية وقيمة خاصّة. بينما لا تزال الكلمات محاطة بالصّمت، لم يجازف الإنسان بعد بقرار حاسم. لا يماثل الإنسان نفسه على نحو جازم مع الكلمة قبل أن تكون الكلمة منطوقة أو مكتوبة.

تسكن الكلمة الموجودة في الصّمت في عالم يتجاوز عالم الرؤية - الذي هو عالم الصّمت. ومضة الشفافية حيث الكلمة انبعثت من ومضة ذلك العالم الخفي، هي الومضة التي تحطّ على الكلمة عندما لا تزال مطوقة بالصّمت البشري.

2

الصّمت يوقظ الحزنَ في الإنسان، لانه يذكّره بتلك الحالة التي لم تكن فيها قد وقعت بعدُ السقطةُ التي سبّبتها الكلمةُ. يجعل الصّمتُ الإنسانَ يحنّ إلى تلك الحالة قبل سقطة الإنسان، ويجعله في الوقت نفسه قلقاً، لأنه في الصّمت كما لو أن الكلمة قد تظهر، فجأة، في أيّ لحظة، ومع الكلمة تقع السقطة الأولى في الأثم ثانيةً. لذلك السبب يعتبر الناس الشاعر متغطرساً، لأنه الشاعر، الذي مادّته الوحيدة هي اللغة، لا يبدو منزعجاً حول حقيقة أن الإنسان سقط في الإثم من الكلمة. لكن الإنسان يشعر بنفسه منجذباً نحو الشاعر أيضاً، لأن الكلمة لا تزال في حالتها الأصلية في الشعر، مثل الكلمة الأولى ذاتها التي جعلته إنساناً؛ وهذا يجعله سعيداً.

3

حين يكون الإنسان صامتاً يجد نفسه، ليس ذاتياً بل فينومينولوجيا[1]، في حالة سبقت خلق اللغة. بكلمة أخرى، حين يكون الإنسان صامتاً

---

(1) ظاهريا.

فإنه يشبه إنساناً ينتظر لأول مرة خلق اللغة. صحيح أن لدى الإنسان في الصّمت الكلمة، لكن تكون الكلمة على حافة التلاشي تقريباً. يكون الإنسان في الصّمت كما لو أنه كان مستعداً لإعادة الكلمة إلى الخالق التي استلمها منه سابقاً. ولهذا فهناك شيء مقدّس في كل صمت تقريباً.

يكون الإنسان في الصّمت في موضع إعادة الكلمة إلى حيثما جاءت. لكن في اللحظة التالية، اللحظة التي يتحادث فيها، فإنّه يكون كالشخص الذي حصل للتو على الكلمة من الصّمت. يكفّ الإنسان في الصّمت تقريباً عن أن يكون إنساناً لكنه يعود ثانية بنطق الكلمة الأولى. لو ينظر المرء بعمق إلى إنسان يبدأ بالكلام بعد صمت طويل، كأنما يتم للتو خلق إنسان أمام عينيه عبر الكلمة، كأنما تتم إعادة تأكيده كإنسان بواسطة الكلمة.

من الصّمت تأتي الكلمة، مرارا، كأنّما عبر عمل خلّاق، (يأتي) الآخر المطلق. ولهذا يصبح هذا العمل الخلّاق متجسداً في البنية الأساسية للإنسان.

يكون الإبداع إلى حد كبير جزءاً من الإنسان الذي لا نعتبره كشيء استثنائي وفريد في الإنسان، بل على العكس كسمة طبيعية تجعل الإنسان انساناً في المرتبة الاولى، كالكلام.

لو يفقد الكلام، مع ذلك، ارتباطه بالصّمت، فسيكون هناك، بالتالي، في المكان المحتل سابقاً، من قبل الصّمت، خواء الهاوية فقط. تختفي اللغة في هذا الفراغ كالسابق في الصّمت. يتم امتصاص الكلمات من قبل الفراغ، وينبعث خوف هائل في الإنسان الذي قد يتوقّف عن أن يكون إنساناً عندما تختفي الكلمة الأخيرة في خواء الهاوية.

4

لهذا، يعيش الإنسان، هنا، في الصّمت بين خرابه (طالما يمكن أن يكون الصّمت البداية لضياع الكلمة المطلق) ونشوره.

هذا هو المكان المركزي للإيمان، كما لو أن الإنسان كان في الصّمت جاهزاً للتنازل عن الكلمة التي أصبح عبرها إنساناً ويعيدها إلى الله التي استلمها منه، معتقداً أنه سيستلمها ثانية.

هنا في هذا المكان المركزي حطم باسكال نفسه قبل أن ينهض ثانية كما باسكال في المذكرات ونصوصه الأخرى[1]. كان يشبه بعد الدمار إنساناً يستقبل لأول مرة الكلمةَ.

استطاع أن يتكلّم في شذرات فقط؛ كل جملة في المذكرات والنصوص الأخرى[2] تشبه دائماً الجملة الأولى.

كما لو أنه أراد دائماً أن يبدأ حيثما بدأ هو نفسه، كما لو أنّه أراد أن يكرّر مرّة بعد الأخرى، وألا يترك أبداً ذلك الحادث الفريد الذي حصل خلاله، كأنما لأول مرة، على الكلمة، والذي انبعث عبره من موت الروح ثانية. لم تكن تلك الشذرات محض شذرات بل المجموع الكلّي لنشور الإنسان.

---

(1) هنا إشارة إلى أعمال باسكال. والعبارة مكتوبة بصورة غير مائلة في النص الألماني الأصلي Memorial and Penees.

(2) في Memorial and Penees .

الشيطاني في الصّمت والكلام

1

لا تكون قوة الشفاء والمودّة فقط حاضرة في الصّمت، بل وأيضاً قوة الظلام والرعب، تلك التي يمكن أن تنبثق من باطن الصّمت، قوة الموت والشر. «يخيفني الصّمت النهائي من هذه الفضاءات اللانهائية» (باسكال)[1].

تكون الكلمة التي تأتي من الصّمت في خطر الاتصال مع القوة التخريبية والشيطانية الموجودة في الصّمت. يمكن أن يظهر في كلّ لحظة شيء مطمور ومهدد في الكلمة ويدفع الحميمي والسلمي الذي يريد أن ينبعث من الصّمت أيضاً، إلى الكلمة.

لكن يمكن أن تغزو هذه القوة الشيطانية المُهددة الكلمةَ فقط، يمكنها أن تجد فضاء في الكلمة، حينما لا تكون الكلمة مملوءة بالروح. لأن قوة الروح في الكلمة يمكن أن تنتصر على الشيطاني. أُزيل الخوف من الصّمت، وأبعد بواسطة الكلمة التي تسكن فيها الروح - وبدقة أكبر،

(1) النص الأصلي بالفرنسية .

التي تسكن فيها الحقيقة والنظام. يكون العنصر الشيطاني مروضاً في الصّمت بواسطة روح الحقيقة والنظام، بعدها يتبع الصّمت الكلمةَ مثل حيوان مفيد ومطيع: إنه يساعد الكلمة من خلال منحها شيئاً من القوة الأصلية والنمو الموجود في الصّمت.

لهذا نتحدث بلغة تم تحريرها من قوة الشيطان بواسطة الروح. أُنقذ الإنسان جزئياً من غزوة الشيطاني بواسطة اللغة التي تنشط فيها الروح.

في الروح الموجودة في الكلمة حُفظت هناك علامة اللوغوس الإلهي[1]؛ إنه ذلك الذي يمنح الكلمة القوّة التي تعيد الشيطاني إلى الطاعة.

لكن إذا فقدت الكلمة الصلة بالروح فإنها تكون مكشوفة لكلّ القوى الشيطانية، بما فيها (القوى) الشيطانية التي تأتي إليها من باطن الصّمت. لم يعد الصّمت، إذاً، صمتاً من أجل الكلمة بل من أجل نفسه فقط: إنه يقف بشكل مهدّد ضد الكلمة، ويراود الخوفُ الإنسان بأن الصّمت قد يسلب منه الكلمة وحتى صوت الكلمة.

يستخدم الإنسان، أحياناً، القوةَ الشيطانية الأساسية في الصّمت: عندما يجلس القاضي المحقّق ساعات بلا انقطاع في الصّمت مقابل المجرم، تصبح القوّة الشيطانية الطبيعية للصمت كبيرة جدّاً، بحيث لم تعد إرادة المتهم قادرة على إخفاء أسراره. يكون القناع ممزقاً والحقيقة مكشوفة.

2

أصل اللغة هو «عمل ما قبل التأريخ، الذي لا يمكننا معرفة أي شيء

(1) العقل الإلهي.

عنه» (شيلر)، لكنه عمل ما قبل تأريخي مثل اخضاع التيتانيين والآلهة ما قبل الأولمبياد: لولا انتصار آلهة الأولمبياد لسادت قوى الظلام المطمورة على الأرض. لكن بالنسبة لانتصار تلك الروح الموجودة في الكلمة على القوة الشيطانية الموجودة في الصّمت، يكون الصّمت قد استولى على كل شيء ودمّره.

قبل خلق الكلمة، احتلّ الصّمت كلّ شيء. تنتسب الأرض إلى الصّمت. كما لو أن الأرض كانت قائمة على الصّمت وفوقه؛ أنها حافة الصّمت فحسب. من ثم جاءت الكلمة. فغرق الصّمت الشيطاني في الفناء. لكن يبدو كما لو أن الأرض رغم كل شيء قد تمزّقت من الصّمت قطعة قطعة، كما صُنعت الشيكات من الغابة البدائية. من غابة الصّمت البدائية، خلال الروح الموجودة في الكلمة، نهضت أرض الصّمت الودودة التي تغذي الكلمة وتحملها.

لكن تصبح القوة الأولية في الصّمت أحياناً قوية في الليل كليّاً. فيبدو حينها كما لو أنه تم تحضير اجتياح الكلمة. تبدو الغابة المظلمة كأنها المكان حيث يجمّع الصّمت قواه لغرض الهجوم. تبدو الجدران البراقة للبيت مثل شواهد قبور الكلمة. من ثم يظهر ضوء في غرفة في طابق البيت العلوي، كما لو أن الكلمة بالذات قد نُطقت لأول مرة. كلّ عملاق الصّمت يكمن لسيده مثل حيوان مطيع.

3

تجلّت في القصيدة التالية لماثيوس كلاوديوس[1] سلطة اللغة على شيطانية صمت الليل:

---

(1) ماثيوس كلاوديوس والملقب بآسموس شاعر وصحفي الماني عاش في الفترة 1740-1815.

علا القمر
تلمع النجوم الذهبية
مشرقة في السماء وصافية؛
الغابة مظلمة وصامتة
وعلى سطح المروج تعلو
الغيوم البيض مدهشة.[1]

تم في هذه القصيدة هزيمة صمت الليل الشيطاني بلمعان اللغة. القمر والنجوم، الغابة، المروج والضباب كلّها عثرت على بعضها البعض والتقت في الضوء الصافي للكلمة. يغدو الليل صافياً جدّاً في ضوء القصيدة حيث يجد القمر والنجوم، مروج الغابة والضباب طريقها نحو ضوء النهار الذي هبطت منه الكلمة. لم يعد الصّمت مظلماً الآن: لقد أصبح شفافاً بواسطة الضوء وإشعاع الكلمة الذي يسقط على الصّمت. يكفّ الصّمت عبر الكلمة عن أن يكون في عزلة شيطانية ويصبح الأخت الحميمة للكلمة.

(1) وغير مترجم في النسخة الإنكليزية النص الشعري أصلاً باللغة الألمانية.

اللغة والعلامة[1]

من الخطأ أن نستنبط اللغة من العلامة (كونديلاك، مان دي بيران، برغسون). تنتسب العلامة إلى جنس مختلف كلّياً عن اللغة. فهي ليست مستقلة عن العواطف التي ولّدتها: إنها ممزوجة معها. إنها جزء منها وتعبّر عادة عن رغبة. تعبّر اللغة، من الجانب الآخر، عن وجود، كليّ، وليس مجرد رغبة، التي تكون جزءاً من الوجود وليست وجوداً كلّياً بذاته. توجد فيها من مادة الوجود الكامل كثر من العاطفة والرغبة. اللغة هي في الواقع من هذا النوع من الوجود النادر الذي يخلق الوجود ذاته. لا تملك العلامة، من الجانب الآخر، خزين وجود مستقل يمكن أن نسحب منه ونمنحه إلى ظواهر أخرى. أنها تعدو على طول بلا وجود مستقلٍّ خاصّ بها.

لم يكن الإنسان قادراً البتة على الوصول إلى اللغة على معابر العلامة، لأنّ لدى العلامة شيئاً لا يعوّض عنها، وفقط عبر فعل أبداًعي خاص تستطيع أن تمنح شيئاً ما حريةً. اللغة جليّة وحرّة ومستقلة، تعلو على

(1) ولكن لأن لها علاقة بالتركيب السيمائي للغة فأرى أن افضل ترجمة هي «العلامة» يمكن أن تترجم: الإيماءة، الإشارة، الدلالة.

نفسها وتترك كل شيء خلفها باستثناء الصّمت الذي تأتي منه. العلامة، من الجانب الآخر، غير حرّة، لا تعوّض، ولا تزال ممزوجة بالمادة التي تستخدمها في محاولاتها في الصورة الذاتية. إنها لا تزال في داخل المادة ومرتبطة بها، ولا تقترب من المادة بحرية من الخارج كما تدنو الروح من الكلمة.

«تملك العلامة خواء وغمَّ انعكاسات الأفعال الفيزيولوجية والسايكولوجية التي ولِدت منها والتي تحرّرها بدورها (التي هي الأساس لوضوحها)؛ إنها لا تملك وضوح ولمعان اللغة».

(باوهوفر)[1]

صحيح أن العلامة تسبق اللغة عند الطفل، لكن هذه ليست هي النقطة الجوهرية على الإطلاق. النقطة الجوهرية هي ظهور اللغة عند الطفل مستقلّة تماماً عن العلامة التي تسبقها، ونسيان وجود العلامة السابق. أسبقية العلامة ليست هي القضية، بل بالأحرى حقيقة أن كلّ طفل جديد يحرّر من العلامة بواسطة كلّ فعل أبداًعي.

تنتسب اللغة من غير ريب إلى عالم الوجود الأبدي - إلى درجة كبيرة بحيث تكون الحقيقة الوراثية في اللغة غير مهمة، لأنها كانت ممتصة من قبل قوة الوجود. حتى وإن تطوّرت اللغة ببطء، فلن تؤخذ «الصيرورة» بالحسبان، كونها ممتصّة كلّياً من قبل عالم الوجود.

«ستستخلص العين المراقبة لأيّ كائن روحي، وهي تلاحظ التطوّر المتدرج وكمال عالم الحيوان، كما نراه من شكل إلى شكل آخر، قبل أن يصل الإنسان، هذا الاستنتاج: يتحرّك الصوت الذي يصدح رقيقاً من الطير نحو تمدد

(1) لا توجد أية إشارة أو ملاحظة عن مَن هو باوهوفر.

تدريجي في الحيوان اللبون، وسيكون المخلوق ما بعد القرد بالضرورة بلا صوت تماماً. إنما هذا هو، وبشكل رئيسي طريق القوة الخلّاقة الراقية في أغلب الأحيان: التي توزّع بركات ومعجزات المستوى العالي من الحياة، وتسمح لها أن تتطوّر في تلك الأماكن، حيث بدت الحياة القديمة ميتة، والتي تبعث مخلوقاتها الجديدة من الموت».

(ج.هـ فون شوبرت)[1]

تنتمي اللغة إلى الحياة الإنسانية ذاتها، إنها جزء منها، ممزوجة ومعجونة بها.

«ينبغي على اللغة، انسجاماً مع قناعتي العميقة، أن تُعتبر جزءاً من بنية الإنسان ذاتها. لكي نفهم حقّاً كلمة واحدة فقط، ليس كمحفّز مادّي فحسب، لكن كصوت معبّر عنه يصف مفهوماً، ينبغي أن تستقرّ اللغة في الإنسان ككل وكبُنية مترابطة».

(ي. فون همبولت)[2]

يمكن أن تكون اللغة مستنبطة من وجود آخر فقط ومن كائن[3] لا يزال هو أكثر قوة من كائن اللغة.

---

(1) ج. فون شوبرت عالم ألماني فيزيائي وباحث في علم الطبيعة عاش في الفترة (1780 - 1860).

(2) ي. فون همبولت هو فيلسوف ودبلوماسي بروسي عاش في الفترة (1767-1835)

(3) هنا إشارة إلى كائن ما فوق ورائي.

اللغات القديمة

1

في حكايات العصر الذهبي الخرافية قيل لنا إن الناس فهموا لغة كل الحيوانات، الأشجار، الأزهار، والحشائش. تلك هي رسالة تذكير عن حقيقة أن في أول لغة انبعثت للتو من كمال الصّمت، كان لا يزال هناك كمال كلّيّ المحتوى.

في الوقت نفسه تسلّقت هذه اللغة إلى الأعلى نحو قبّة السماء. شكلّت قوساً فوق كلّ أصوات الأرض، والتقت كلّ الأصوات من انحاء الطبيعة معاً. بينما رفُع كل شيء ينبعث من الأرض إلى قبّة السماء، فإنّ كلّ أصوات الأرض رفعت بسماء اللغة الوحيدة. دخل كل صوت منفرد فيها وأصبح جزءاً منها، ولذلك فكلّ الأصوات كانت مفهومة. كانت سماء اللغات هذه وطناً لكل الأصوات؛ كلّها وعت نفسها ووعت بعضها البعض الآخر في هذه السماء. كانت هذه اللغة مخفية بالرغم من قوتها، متوارية عن الأنظار مثل الصّمت نفسه.

بنيت اللغات القديمة بشكل قطري، تبدأ من/ وتعود دائماً إلى المركز

الذي هو الصّمت، مثل نافورة بادئة كل نفثاتها في قوس من المركز، وعائدة إليه وتختفي فيه.

«في الكتابات المعاصرة تبدو الفكرة منبعثة من حركات إنسان يمشي إلى الأمام بصورة مستقيمة. إلاّ أن كتابات القدماء تبدو منبعثة من ذلك الطير الذي يحلّق ويتقدّم في حلقات».

(جوبيرت)[1]

كان هنالك مزيج من احتراز وقوة في اللغات البدائية: تحفّظ وخجل، لأن اللغة كانت قد ظهرت للتو فحسب من الصّمت، وقوة لأنّه كان عليها أن تضمن مكانتها، توطد نفسها بحيث لا يمكن إزاحتها ثانية إلى الصّمت.

«كنانة مليئة بسهام حديدية، حبل مرساة مُثبّت بإحكام، بوق صارخ يشق الهواء بنغماته القليلة الثاقبة: تلك هي اللغة العبرانية[2] - إنها لا تقول إلّا القليل، لكن ما تقوله يشبه ضرب مطارق على مسمار»

(رينان، اسرائيل).[3]

مثل قطعة من جدار سِيكلوبي[4] تقف الكلمات ثابتة تقريباً، كما لو أنها تنتظر، كما لو انها قد تُستدعى ثانية إلى الصّمت مثلما أُرسلت خارج

---

(1) لا توجد إشارة من المؤلف إلى من هو جوبيرت.

(2) في النص الألماني الأصلي يوجد فراغ منقط وليس علامة فاصلة كما وضعها مترجم النص الإنكليزي.

(3) إشارة إلى كتاب «إسرائيل» للمفكر الفرنسي إرنست رينان الذي عاش في الفترة بين (1829-1892).

(4) جدار ضخم منسوب وهو طراز من البناء يتميز باستخدام أحجار رخام غير متناسقة الأحجام من دون استخدام الملاط.

الصّمت. كما لو أنها أحست بنفسها أنها لا تزال تحت سيطرة الصّمت، كما لو أنها لا تزال تحدّق إلى الخلف نحو الصّمت من حيثما جاءت. كان من الممكن أيضاً أن تأتي دائماً كلمة أخرى، أرقى، تصحيحية من الصّمت.

ينبغي أن تضمن اللغات السابقة وضعاً ثابتاً لنفسها - ولهذا فإنها كانت ثابتة. كانت الكلمات المنفردة تشبه أوتاداً ثبّتت في الأرض، كل واحدة بطريقتها الخاصّة، نادراً ما توجد أي صلة بين وتد وآخر. كان تصميم اللغة عمودياً. كل كلمة غطست بصورة عمودية، صفاً موزوناً، في الجملة.

> «في قوانينا القديمة تبدو اللغة عادة بليغة وقوية؛ أقل فظاظة، وأقل جفافاً، بالأحرى بطيئة ومع هذا من دون شدّ».
>
> (يعقوب غريم).

خسرنا في اللغة اليوم القيمة المرنة للألسنة القديمة. أصبحت الجملة ديناميكية؛ كلّ كلمة وكلّ جملة تستعجل نحو اللاحق. معمار اللغة مختلف: أُخفيت الأعمدة العمودية وحدّدت الجملة بواسطة حافز الاندفاع الأفقي إلى الأمام. «الأعمدة العمودية ستحمل الطيران الكوني مثل قلاع - لكن كل شيء يتحرّك أفقياً الآن في أفق التحليق». (الهروب من الله) [1]. غدت الكلمة ديناميكية وسلسة. تزاحم الكلمات بعضها البعض الآخر في سيرها المندفع العنيف. اللغة اليوم حادة وعدوانية ويوجد هناك غالباً عدوانية في نفس شكل اللغة أكثر من المعنى الذي تعبّر عنه. اللغة هي واعية لذاتها أيضاً، تنبعث كل كلمة من كلمة قبلها أكثر مما تنبعث من الصّمت، وتتقدّم نحو الكلمة التالية في المقدّمة أكثر مما تتقدّم نحو الصّمت.

---

(1) إشارة الى كتاب ماكس بيكارد: «الهروب من الله».

3

يلاحظ المرء في اللغات القديمة أن ولادة الكلمات من الصّمت لم يكن أمراً مسلماً به، بل اعتبر حادثاً ذا أهمية كافية يقتضي توقفاً في تدفق اللغة قبل وصول الكلمة القادمة. كانت الكلمات تُقاطعُ باستمرار من قبل الصّمت. كما يستقبل نهر مولود عند كلّ لحظة مياهاً من ينابيع مختلفة، يتدفّق بالطريقة نفسها ينبوع جديد من الصّمت، بعد كلّ كلمة، في تيار الكلمة.

كانت الكلمة في اللغات القديمة مجرّد مقاطعة للصمت. كانت كل كلمة مؤطّرة بالصّمت. كان هذا الإطار المطوّق للصمت الذي منحها شكلها الفردي، وأبقى عليها مفصولة ومميزة عن كل الكلمات الأخرى، معزولة عنها وبشخصيتها مصانة بواسطة الصّمت. لو لم يكن هناك صمت بين الكلمات فإنها تفقد شكلها الفردي وشخصيتها. وبدلاً من أن تكون منفردة فإنها تصبح كتلة متشابهة.

كان هناك في اللغات القديمة صمت في المسافة بين الكلمات. تنفّست اللغةُ الصّمت، نطقت الصّمت، في الصّمت العظيم الذي جاءت منه.

> «يحتل الصّمت في الأسلوب الكلاسيكي عادة فضاء مهمّاً. ساد الصّمت في اسلوب تاسيتوس[1] يندلع غضب سوقي، يثرثر النوع الأقل من الغضب، لكن يوجد هناك سخط يشعر بالحاجة إلى الصّمت لكي يترك الكلمة إلى الامور التي تم القيام بها في توقع عدل مستقبلي».
>
> **(إرنست هلّلو)[2]**

---

(1) سناتور ومؤرخ الأمبراطورية الرومانية c. AD 56 – and AD 120 هو بوبيلوس كونيليوس تاتيوس.

(2) إرنست هلّلو: هو كاتب فرنسي كاثوليكي عاش في الفترة (1820–1885)

4

من المهم تدريّس اللغات القديمة في المدارس لأنها تكشف عن أصل اللغة في الصّمت، سلطة الصّمت على اللغة، والنفوذ الشافي للصمت على اللغة بوضوح أكبر جدّاً من تلك الأشياء التي تم كشفها اليوم في لغتنا.

ومن المهم أيضاً أنه خلال اللغات القديمة التي تكون «اعديمة الفائدة»، ينبغي تحرير الإنسان من عالم الربح والمنفعة الصرف. لا يمكننا «فعل الكثير» باللغات القديمة، لكنها تضعنا في تماس مع شيء يأخذنا إلى ما أبعد من عالم خدمة المصلحة الخاصّة الصرف.

ومهم جدّاً أيضاً حفظ اللهجات. لأنّ الإنسان الذي تعوّد على تكلم اللهجة يجد أن من المستحيل أن ينتقل بطلاقة من كلمة إلى أخرى حين يكتب أو يتحدّث اللغة النظامية[1]. إن عليه دائماً أن يبدأ من اللهجة ليبلغ مستوى اللغة النظامية قطعاً. اللغة النظامية هي ليست شيئاً جاهزاً مسلماً به. عندما يتحدّث المرء، الذي يتحدّث عادة لهجةً، اللغةَ النظامية، فإنّه يجرّ اللهجة في داخله مثل كوابح في عربة.[2] تكون كلمات اللهجة أقل سهولة على المناورة. مثل الصّمت الذي يقاطع تدفق الكلمات ويمنع اللغة من أن تصبح روتيناً ميكانيكياً، فإن اللهجة، وإن إلى درجة أقل، تحمي الشخصية المنفصلة للكلمات.

من المحتمل أن يكون استحواذ اللغة النظامية الموحّدة على اللهجة نقيضاً لكل طبيعة اللغة ولهذا نقيضاً لكل طبيعة الإنسان، وأن هذا ينبغي أن يمتد إلى مدى بعيد جدّاً أبعدَ من حدودها المناسبة. توجد هناك

---

(1) يقصد اللغة الفصحى الأم التي تستخدم في الدراسة والكتابة.

(2) هذه ترجمة تكاد تكون حرفية.. وماقصده الكاتب هو ان مَن تعوّد على تحدث اللهجة او العامية فانه يواجه صعوبة في نفسه تشبه الكوابح في عربة.

في كل الاهتمامات الإنسانية علاقة محدّدة بين كمية ونوعية الظاهرة. الظاهرة الإنسانية لا يمكنها أن تتوسّع إلى أبعد من مقياس معيّن من دون أن تدمّر نفسها، وهذا ينطبق بوضوح على اللغة كما ينطبق على كلّ شيء آخر.

> «تضررت أروع حقيقة للغة الإنكليزية عن طريق توسّعها الكوني... على أيّ عاشقِ طيرٍ أن يعترف بأنّ عصفور الدوري يمتلك فضائل عدّة، لكن لا بُدّ أن التفكير بقوى انتشار هذا الطائر الصغير تسبب له رعشة بغيضة. لو أنه يفكّر بعناءٍ كبير، فإنه سيصبح مهووساً بفكرةِ عالمٍ إختفت منه أكثر الأجناس شديدة الحساسية[1] وبقيت فيه عصافير الدوري الكونية فقط».
>
> (باسيل دو سيلنوكورت).[2]

(1) ويمكن ان تأتي بمعنى «كل من دقق في الامور واستقصاها» أو «صعب إرضاؤه» fastidious.

(2) كاتب وصحافي بريطاني عاش في الفترة (1877–1966).

الأنا والصّمت

1

يخرج الإنسان الذي لا تزال طبيعته مسكونة بالصّمت من الصّمت إلى العالم الخارجي. الصّمت مركزي في الإنسان. في عالم الصّمت، لا تكون الحركة مباشرة من إنسان إلى آخر، بل من الصّمت في إنسان إلى الصّمت في آخر.

يبدو الناس في لوحات الرسامين المتميّزين[1] القدماء كما لو أنهم خرجوا للتو من فتحة في جدار؛ كما لو أنهم قد شقّوا طريقهم بصعوبة. يبدون غير آمنين ومتردّدين لأنهم ابتعدوا إلى مسافة بعيدة جدّاً، ومع ذلك ينتسبون إلى الصّمت أكثر من أنفسهم. إنهم يتوقّفون وينتظرون ظهور فتحة جديدة أمامهم فيتمكّنون من العودة ثانية من خلالها إلى الصّمت. يبدو أن حركات هؤلاء الناس تلتقي في الصّمت قبل أن يلتقي الناس أنفسهم. إذا نظرت إلى مجموعة من هؤلاء الناس مجتمعة في لوحة أحد الفنانين القدماء - بشر يتعاضدون مع بعضهم كأنهم خرجوا

(1) الترجمة الحرفية هي «من الطراز الأول».

للتو من جدار الصّمت - كما لو أنهم كانوا مجتمعين معاً في غرفة انتظار، منتظرين ظهور فتحة كبيرة من الصّمت كي تظهر أمامهم فيتمكنون من خلالها أن يختفوا جميعاً ثانية.

الوضع مع الناس اليوم هو النقيض تماماً. السبب الرئيسي هو وجود حركة من أجل نفسها، حركة تصيب هدفاً محدّداً عن طريق الصدفة فقط، حركة تحدث قبل أن يتم إقرار لماذا تحدث، حركة تكون دائماً متقدمة على الإنسان نفسه - متقدمة إلى حد بعيد جدّاً بحيث إن عليه أن يقفز ليصل إليها، أن يقفز إلى حد بعيد أمام نفسه بحيث لا يسعه إلا أن يثب إلى أناس آخرين، ويجعل بذلك نفسه وناساً آخرين متوترين.

حتى في وسط عالم الضجيج المعاصر، يكون جوهر الصّمت مع ذلك حاضراً أحياناً في الناس. رأيت في وسط المدينة تماماً، في ذروة الازدحام عبر تورينو في ميلانو، رجلاً في بدلة عتيقة كانت أكثر من مجرد غطاء لجسده: كانت جزءاً من الرجل ذاته، لقد عانت معه، كانت تشبه جلداً مسحوجاً يميل إلى السُمرة. لم يكن الرجل واقفاً ولم يكن يمشي، حينما مشى، كان ساكناً، وحينما وقف ساكناً تحرّك إلى الأمام قليلاً. كان وجهه رقيقاً ومتورداً، باستثناء جبهته وخديه، فقد ازدحمت التجاعيد على وجهه. تنظر عيناه إلى أعلى من كل شيء يواجههما، ومع ذلك فقد كانتا تنتظران أن يحصل شيء لهما من قرب. الذراع اليسرى كانت مشدودة إلى الجسد، كما لو أن الجسد لم يسمح للذراع بالحركة، ومع ذلك فقد حافظ على يده ممدودة بعض الشيء. وضعتُ فيها ورقة نقدية، إلا أنني لم أعرف (لأنني لم أجرؤ على الأنتظار لأكتشف) في ما أن اليد عادت إلى الرجل، وفي ما هو قد وضع النقود في جيبه. أو أن اليد تحرّكت نحو الأخرى، باحثة عن اليد الأخرى ليمكنه تسلّم النقود؟ يعيش هذا الرجل في المركز بين الأخذ والعطاء، بين البعيد والقريب، بين الشيخوخة والشباب. كان يعيش من الجوهر الصامت في المكان

المركزي في الداخل، من مكان اللقاء والبؤرة في الداخل التي تتقدّم منها كل حركة إلى الخارج.

يحمل الإنسان، الذي لا يزال جوهر الصّمت قوة حيوية فيه، الصّمت إلى كلّ حركة. حركاته لذلك بطيئة ومحسوبة. إنّها لا تهتز بعنف ضد بعضها؛ إنها محمولة من قبل الصّمت؛ إنها ببساطة أمواج الصّمت. لا يوجد هناك شيء مبهم وغير محدّد حول مثل هذا الإنسان، لا شيء مبهم حول لغته: الحقيقة أن جعل حركته وكلماته متميزة عن بعضهما بشكل منفرد من خلال الصّمت المعترض، يجعل كلَّ شخصيته أوضحَ مما لو لم يكن الصّمت موجوداً هناك على الإطلاق، والإنسان وكلماته كانت كلها جزءاً من ضجيج مستمرٍّ.

تنبع نبالة مثل هذا الإنسان من حمله الصّمت إلى العالم. لم يشلّه الهدوء الذي يقضي فيه حياته، لأن الهدوء مرتبط بالصّمت، والصّمت يوسّع تخوم حياته. حتى القلق لا يستطيع أن يستهلك مثل هذا الإنسان، لأنه سيكون كما كان مجرّد تذبذب للصمت.

> مع ذلك، حينما كفّ الصّمت عن أن يكون قوة فعالة، «الهدوء لا يكون نافعاً للإنسان، لأنّه يشلّ ويستهلك حيثما لا يكون هناك صمت؛ ولهذا فعليه أن يسير مجهداً بصورة مضطربة على طول ويقتفي آثار كل بداية جديدة باضطراب محتوم».
>
> (غوريس)[1]

(1) لا توجد هناك إشارة من المؤلف إلى مَن هو غوريس، لكن الاحتمال الكبير أنها إشارة إلى الفيلسوف والصحافي والمؤرخ واللاهوتي الألماني يوهان يوسف فون غوريس الذي عاش في الفترة (1776-1848).

2

لا يلاحظ الفرد في مجال الصّمت الخلاّق أي تعارض بين نفسه والمجتمع، لأن الفرد والمجتمع لا يقفان ضد أحدهما الآخر، بل كلاهما يواجهان الصّمت معاً. يكفّ الفرق بين الفرد والمجتمع عن أن يكون مهمّاً بوجه قوة الصّمت.

لم يعد الفرد يواجه في العالم المعاصر الصّمتَ، لم يعد يواجه المجتمع، بل يواجه الضجيجَ العام فقط. الفرد يقف بين الضجيج والصّمت. لقد عُزل عن الضجيج وعُزل عن الصّمت. إنه وحيد وبائس.

في عالم لا يزال الصّمت فيه قوة فعّالة، لا تكون العزلة معتمدة على الذاتية، ولا تنبعث من الذاتية. تنتصب العزلة أمام الإنسان كشيء موضوعي، حتى العزلة داخل نفسه؛ تنتصب أمامه كصمت موضوعي. القديسون الذين سلكوا طريق العزلة لم يعثروا على أنفسهم، بل على عزلة الصّمت الموضوعي، حيث تبدو عزلتهم الباطنية مجرد جزء صغير منه. تحمّل القديس العزلة كما لو أنها جاءت إليه من آخر واستقبلها كأمر مفروغ منه. ولهذا فإنّ العزلة بالنسبة للقديسين لم تكن نتيجة إجهاد كبير مثل عزلة عصرنا «الباطنية». على العكس، أنها كانت رمزاً للعلاقة مع عالم الصّمت الموضوعي العظيم ومع عزلته الموضوعية. ولهذا استلم القديسون من العزلة أكثر مما أمكنهم استلامه من عزلتهم الباطنية وحدها، لأنّه لم تكن في الحقيقة عزلتهم الخاصّة فحسب، إنها كانت خارج أنفسهم وأكثر مما يمكن أن تكونه عزلتهم قط. حيثما تكون العزلة مجرّد جزء من أعماق الفرد المنعزلة فإنها تستهلك وتحطّ من قيمة الفرد.

3

الإنسان الذي لا يزال يملك في نفسه جوهر الصّمت لا يحتاج مراقبة

حركات وجوده الباطني دائماً. ولا يحتاج أن يرتّب كلّ شيء بوعي، طالما أن الكثير تم ترتيبه، من دون معرفته الواعية، بواسطة قوة جوهر الصّمت، التي يمكنها تخفيف التناقضات المتحاربة في الباطن.

إذاً، لم تنقسم الحياة إلى تناقضات من الإيمان والمعرفة، الحقيقة والجمال، الحياة والروح؛ كلّ الواقع يظهر أمام الإنسان، وليس التناقضات النظرية فقط. الحياة الإنسانية لا تحدّدها الاختيارات المتنافرة لـ أما - أو، بل عن طريق التوفيق بين التناقضات. يقف جوهر الصّمت بين التعارضات ويمنعها من أن تصارع بعضها البعض الآخر. ينبغي أن يتحرّك العنصر الواحد في التناقض على سطح الصّمت المطمئن الواسع أولاً قبل أن يتمكّن من الوصول إلى الآخر. جوهر الصّمت يُصالح بين التناقضات المتنافرة.

هنا فقط يعلو الإنسان فوق تناقضاته الداخلية، وهنا فقط فإنّه يملك مرحاً. لأن التناقضات تفقد في وجه الصّمت وضوحها، يبتلعها الصّمت. لإنجاز معنى من المرح،

«فعلى المرء أن يملك البهجة المطلقة والثقة اللتين تكونان ضروريتين لكي يسمو فوق تناقضاته الشخصية ولا يكون حزيناً ومتبرماً حولهما».

(هيغل)

إذا لم يكن هناك جوهر للصّمت في الداخل، فستكون التناقضات بادية للتحليل والنقاش. «السعادة والرضى» تتلاشيان وتكفّ الدعابة.

الإنسان قادر بصورة أفضل على تحمل أشياء عدوانية تجاه طبيعته، أشياء تستنزفه، إن هو يملك جوهر الصّمت في داخله. ولذلك السبب تتحمل شعوب الشرق، التي لا تزال مليئة بجوهر الصّمت، الحياة مع الآلات أفضل من شعوب الغرب، التي تحطم جوهر صمتها كلياً تقريباً.

التقنيات بحدّ ذاتها، الحياة مع المكائن، لا تكون ضارة إلاّ حين يكون الجوهر الواقي للصمت غائباً.

يقول أونامونو[1] إن غوته لم يطوّر كلّ الإمكانيات التي كانت في داخله. يمكن قول مثل تلك العبارة فقط في عالم فقد كلّ العلاقات مع الصّمت. تم نسيان أن الإمكانيات التي لا يمكن تحقيقها كلياً تغذّي جوهرَ الصّمت. يتعزز الصّمت بها ويُمنح من هذة القوة الإضافية إلى الطاقات الأخرى التي تحقّقت بصورة كاملة.

ما يقع في جوهر الصّمت هو الحصة التي يملكها الصّمت في أشياء الحياة الإنسانية، التي لا تزال جزءاً من الصّمت. يخفي الإنسان في المحادثة، بعض الأحيان، شيئاً ما في داخل نفسه، إنه لا يسمح له أن يظهر في كلمات؛ كما لو أنه يشعر بأنّ عليه أن يُبقي شيئاً ما يعود حقاً إلى الصّمت.

يحدث غالباً ألا تدرك كلّ الأمة، لفترة طويلة في تاريخها، قدرات محددة. قد تبقى موهبة الابداع الشعري، مثلاً، خامدة. لكن القدرة لم تتحطّم، إنها ببساطة غير منجزة. ربما أنها تستريح وتتعافى في الصّمت. مع هذا فإنّ هناك جمالاً في مثل هذا الصّمت، الجمال الذي يأتي من كل الصّمت المتخلّل للشعر غير المدوّن.

لا يوجد هناك جوهر صامت في العالم اليوم. كلّ الأشياء حاضرة كلّ الوقت في جو من انتفاضة صاخبة، ويسمح الإنسان، الذي انهمك في الصّمت ليغمر فيه عددا كبيرا، عددا متنوعا جدا من الأشياء الموجودة، أن تتلاشى وتختفي في كل الخواء الإستهلاكي للّغة.

جوهر الصّمت الذي يخلص الإنسان من عدوانية الأشياء غائبٌ في

---

(1) ميغيل دي أونامونو: فيلسوف وأديب إسباني عاش في الفترة (1864–1936).

العالم اليوم. لتخفيف العبء عليه بطريقة أخرى، تم القيام بمحاولة لتصنيف الفرد وجعله في صلة فقط مع تلك الأشياء التي تناسب بنيته العقلية.

هذا هو الأسلوب الجديد في التعليم. لا تعلّم الطفل أيّ شيء لا يناسب بنيته العقلية. لكن حيث يكون جوهر الصّمت معروفاً في عالم بأنه لا يزال فعالاً، فليس هناك خطر في تعليم الطفل أشياء لا تتوافق مباشرة مع مزاجه الخاص. يمكن السماح للطفل بالتوسع أبعد من بنية عقله إلى حقل، مثلاً، اللاتينية والإغريقية، التي لا يبدو أنّه يملك أيّ مؤهلات فيها. الجوهر الصامت في الطفل يستوعب المادة الأجنبية، يدمجها مع المحتويات الأخرى للذهن، يوسع كل قريحة الطفل ويمدّد حدوده العقلية. تقام التربية المناسبة والتعليم الملائم على جوهر الصّمت.

قلنا أعلاه إنّ الإنسان الذي يفتقر إلى جوهر الصّمت يكون مقموعاً من قِبل أشياء كثيرة جدّاً التي تحتشد عليه في كلّ لحظة من حياته اليوم. لا يمكنه أن يكون لا مبالياً تجاه حقيقة أنه تم تقديم الأشياء الجديدة كلّ لحظة إليه، طالما ينبغي عليه أن يدخل، إلى حدٍّ ما، في علاقاتٍ معها. ينبغي أن تكون هناك ردّة فعل عاطفية تجاه كلّ موضوع جديد بحيث يستطيع الرد، وهو جزء من طبيعة الإنسان أن عليه الرد على القضية التي أمامه. عندما تحتشد عليه موضوعات كثيرة جدّاً وهو لا يملك في داخله جوهراً صامتاً، حيث يتمكّن جزء من تنوع الموضوعات، على الأقل، أن يختفي فيها، فإن مصادر الانفعال والعاطفة التي هي تحت تصرّفه ليست كافية ليجابه ويرد على كل المواد. وبالتالي تطوّقه الموضوعات من كلّ جانب بشكل مهدّد ومن دون مقر ملائم. لإنقاذ الإنسان من هذا الاحتلال والتكدّس لقضايا عديدة جدّاً التي تتجاوز طاقاته على الاستيعاب، ينبغي إدخاله ثانية في علاقات مع عالم الصّمت، الذي تجد العديد من الموضوعات نظامها الحقيقي أوتوماتيكياً فيه، في هذا العالم من الصّمت حيث تفرّق أنفسها في وحدة متوازنة.

عندما يكون جوهر الصّمت حاضراً في الإنسان، تكون كلّ صفاته متركّزة فيه؛ تكون كلّها مرتبطة بصورة أولية مع الصّمت وبصورة ثانوية فقط مع البعض الآخر. لهذا فليس من السهل جدّاً بالنسبة لعطب في أحد الخواص ليصيب بعدوى كل الصفات الأخرى، طالما أنها حُفظت في مكانها بواسطة الصّمت. لكن إن لم يكن هناك صمت، فيمكن أن يصاب الإنسان كلياً بالعدوى عبر علّة واحدة، بحيث إنّه يكف عن أن يكون إنساناً ويصبح متماهياً كلياً مع الصفة المعطوبة، كما لو أن العلّة والشر الذي تُمثله كانا مستورين فحسب بقناع إنساني.

يكون الجوهر الصامت أيضاً المكان حيثما يتم إعادة خلق الإنسان. صحيح أن الروح هي السبب لإعادة الخلق، لكن إعادة الخلق لا يمكن تحقيقها من دون الصّمت، لأنّ الإنسان عاجز كلياً عن تحرير نفسه من كلّ الذي مضى، إلاّ إذا تمكّن من وضع الصّمت بين الماضي والحاضر.

لا يمكن اليوم بافتقار الصّمت إعادة خلق الإنسان؛ يمكن تطويره فقط. ولهذا السبب صرفت قيمة كبيرة على «التطور» اليوم. إلاّ أن «التطور» لا يحصل في الصّمت، بل في النقاش الغادي والرائح.

يكون جوهر الصّمت ضرورياً لإعادة الخلق، ويكون ضرورياً للسعادة. تكون السعادة، التي تهبط على الإنسان من حقل الغموض، فرحةً لتجد طريقها في امتداد الصّمت. توجد هناك لا نهاية في السعادة التي تشعر بأنها في بيتها على امتداد الصّمت. السعادة والصّمت ينتسبان إلى بعضهما تماماً كما يفعل الربح والصخب.

حين تُستنفد مصادر الصّمت، يكون كل شيء يتعلّق بالإنسان محسوباً بلغة الربح. الربح والصياح يمنحان الإنسان الحقَّ في الممتلكات والمنصب اليوم. لكن في عالم حيث كان الصّمت ما زال حاضراً في كل مكان، قال شيشرو في خطبة لأجل بومبيوس إنه ينبغي أن يُمنح القيادة

العليا في الحرب ضد القراصنة، ليس لأنّه برهن بنفسه على أنّه جندي جدير فحسب، بل وعلاوة على كل ذلك، لأنّ كلّ الحظ الجيد كان معه.

الأسى والصّمت ينتسبان إلى بعضهما أيضاً. الأسى يحرز التوازن في إتّساع الصّمت. تكون قوة العواطف مفقودة، ويظهر الحزن مطهرا من العاطفة حتى اكثر وضوحا كأسىً خالص. ويتم تحويل النواح في الحزن إلى نواح الصّمت. على نهر الدموع يرحل الإنسان عائدا إلى الصّمت.

المعرفة والصّمت

1

«لا يتناول العقل الإنساني الموضوعَ فحسب، كما هو أمامه حقيقة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك في حركته» (هوسرل). توجد هناك إمكانيات في حركة العقل أكثر مما هو مطلوب لمجرد إدراك الموضوع. إنها تمنح العقل اتساعاً.

اتساع العقل واتساع الصّمت ينتسبان إلى بعضهما البعض، لأن اتساع العقل يحتاج إلى اتساع طبيعي مماثل ظاهر لذاته. صحيح أنّ العقل مستقل ويستطيع أن يخلق اتساعه الخاص لنفسه، لكن اتساع الصّمت يعمل كنوع من مُذكِّر طبيعي. عندما تنبعث النظرة الإنسانية من اتساع الصّمت، فأنها تركّز فقط على جزء من الظاهرة. صحيح أن وجود الله العالم كلّياً هو الخبرة السابقة التي يستقبل منه العقل قوته المتأملة لمعرفته الواسعة، لكن في عالم الوجود، فإنّ الصّمت هو الحافز الذي يمنح النوعية الشاملة إلى العين البشرية. ما تم رؤيته آنئذ ليس مجرد جانب واحد - الجانب الاقتصادي، السايكولوجي، أو العرقي - لكن كلّ الظاهرة.

عندما تركّز العين على جانب واحد فقط، فإنّها تحاول أن تعوّض نفسها بواسطة توسيع ذلك الجانب بشكل غير طبيعي، جاعلة إيّاه مطلقاً (سواء يكون الاقتصادي، السايكولوجي، أو العرقي). بهذا التوسع الكمّي للظاهرة، يتم إنجاز اتّساع مزيف، الذي هو دلالة على الرغبة الإنسانية من أجل الشامل، من أجل الكلّ.

لن يطول الأمر قبل أن ترى العين الجزء الخاص، حين يكون جليّاً فحسب، حين يكون معارضاً للجزء الآخر بوضوح، حين يكون خارجاً للتو من الأجزاء الأخرى بحدّة. المتضادات تكون جليّة وتصيب العين بسهولة أكبر من كلّ حقيقة الشيء، لأنّ ذلك مبهم. نحن أصبحنا عاجزين مثلاً عن رؤية كلّ حقيقة الإيمان والمعرفة؛ ولا نعرف من كلّ تلك الأمور سوى التناقضات والأقطاب المتعارضة. تعتبر «الحياة والروح»، «الإيمان والمعرفة»، صحيحة فقط، عندما تكون أضداداً مناقضة بعضها للبعض الآخر. لم يعد الإنسان قادراً على أن يمنح حيّزاً كافياً إلى الحياة والروح، الإيمان والمعرفة، بحيث يستطيع كلّ إنسان أن يحيا على نحوٍ مرضٍ من دون أن يصدّ الآخر.

لا يوجد هناك أيّ شيء يرغب بتناقضات عديدة مثلما قد يبدو. ما يحدث هو أنّه يتم التلاعب بالظواهر بصورة خاصّة، بحيث تبدو وكأنها تناقض ظواهر أخرى، طالما أنها تفشل، خلافاً لذلك، بأسر العين. ما لم يتم تقديمها إلى العين بهذا الشكل المعدّ بصورة خاصّة، فلن تراها العين بسهولة على الإطلاق.

يوجد هناك اليوم مثلاً تعارض بين أميركا وروسيا. لكن الأميركيين والروس - وليس هم فقط - يبالغون بالاختلافات بينهم، ويجعلونها بارزة أكثر، لأنّ البشر اليوم لا يرون في الواقع أي شيء سوى الاختلافات بين الأشياء، الاختلافات الجليّة والحسّاسة التي ينبغي المبالغة بها لكي

يمكن إدراكها على الإطلاق. الأشياء المخفيّة من الحياة يتم تجاهلها اليوم؛ وربما هي غير موجودة أيضاً. يمكن أن تنشب حرب من هذه المبالغة بالاختلافات. ذلك سيكون أكبر أمر مرعب يمكن تصوره: لو أن الحرب لا تنبعث من العاطفة أو ضرورة سياسية، بل من اختلال سايكولوجي محض في الإنسان، الذي يجبره لتهويل الاختلافات بين الظواهر لكي يلاحظ أنها موجودة هناك بأي حال.

2

عندما يكون الإنسان في علاقة مع الصّمت، فإنّه لن يكون مثقلاً بمعرفته. يأخذ الصّمتُ العبء منه. لم يكن ناس الأيام الماضية مُجهدين بثقل معارفهم، مهما قد تكون ثقيلةً: فقد ساعد الصّمت على حمل العبء. لم تكن المعرفة مكبوتة فيه. اختفى فائض المعرفة في الصّمت، ولهذا وقف الانسان دائما في سذاجة جديدة أمام الاشياء.[1]

كان الصّمت منسوجاً في ذات بُنية المقاربة الكاملة للمعرفة؛ لم يكن هناك إلحاح لكشف كلّ شيء. سُمح للصّمت أن يحصل على حصته في الأشياء من خلال الحفاظ على أشياء عديدة لا تنتهك حرمتها من الصّلة مع اللغة.

لم تكن الأشياء في ذلك العالم من الصّمت واضحة كما هي اليوم (حيث تبدو تصرخ عالياً، مناشدة الإنسان أن يتولّى أمرها ويهتم بنفسه، على وجه الحصر، بها. تبدو الأشياء منتسبة إلى الصّمت أكثر مما للإنسان، الذي لا يضع لهذا السبب مثل هذه الأيدي العنيفة عليها، لا

(1) يختلف المقطع اعلاه في النص الانكليزي المترجم عن اصله الالماني ولهذا اعتمدت النص الالماني في ترجمتي له.

يستثمرها بصورة مركّزة جدّاً لأغراضه الخاصّة؛ وحتى نتائج البحث والدراسة أشارت في الواقع إلى الصّمت خلفها وليس إلى الشيء نفسه. ما تم اكتشافه لا يبدو أن يكون شيئاً سوى صمتٍ صار مسموعاً. كان ببساطة جزء الصّمت الذي كشف بمحض اختياره عن نفسه للإنسان.

لم تُنتزع المعرفة من الصّمت؛ فهي لا تزال في صلة مع الصّمت. لقد تم تحضيرها، كما كانت، مع مكونات الصّمت، ولهذا فإنها لا تزال تنتسب إلى الصّمت. المعرفة في عالم هيرودوت، كمثال، مختلفة جدّاً ومتنوعة، لكن مع ذلك يوجد هناك سلام على كلّ حجم المعرفة - السلام الذي ينبعث من نظرة الآلهة الهادئة، الذي أُرسل مقدماً لكي يرافق في صمتِ الآلهةِ ذلكَ الموجودَ في الأشياء الذي يعود إلى الآلهة.

مثلما لا يوجد هناك اختلاف بين الصّمت واللغة اليوم (لم يعد الصّمت ظاهرة تخصّه، بل مجرد الكلمة التي لم تنطق بعدُ)، فلذلك لم يعد يوجد هناك اليوم أيّ اختلاف بين ما تم تحرّيه وما لم يتم تحرّيه بعد. ما لم يتم بحثه بعد، الذي لا يزال مختفياً وغريباً، لم يعد ظاهرة في حد ذاته، بل ببساطة ذلك الذي لم يتم تحرّيه بعد.

ذلك لا يعني أنّ العلم الحديث عديم الفائدة، بل يعني أنّه لا يوجد هناك في العلم اليوم لقاء حقيقي بين الإنسان وموضوع هذا التحرّي. ذلك هو القصور الأساسي في كلّ النشاط المحموم للعلم اليوم: لم تعد هناك أيّ حاجة إلى لقاء شخصي، مواجهة شخصية مع الموضوع. الموضوع والباحث هما في الحقيقة قليلا الأهمية. سُلبت الشخصية منهما بواسطة أساليب العلم الحديث. مُكْنِنَت كلّ العملية. كانت المواجهة بين الإنسان والموضوع حادثاً في السابق: لقد كانت مثل حوار بين الإنسان والموضوع قيد البحث. تم إخضاع الموضوع إلى عناية

وصيانة الإنسان، وخلال اللقاء الشخصي مع الإنسان أصبح الموضو
أكبر وأصبح الإنسان أكبر لأنّه ساعد من خلال اللقاء الموضوعَ على أ
يصبح أكبر مما كان قبل اللقاء. إنّه يشبه ذلك الذي كان في بدايات العل
الحديث، في أيام غاليلو، كيبلر وسوامردام.

الأشياء والصّمت

1

قلنا في الفصل الأول إنّ الصّمت ينتمي بصورة مطلقة إلى عالم الوجود، الذي اتصفّ بوجود خالص. القوة الأنطولوجية للصمت تدخل في الأشياء التي تكون في الصّمت. يتم تعزيز الوجود الحقيقي في الأشياء بواسطة الصّمت؛ يكون المستثمر في الأشياء بعيدا عن عالم الصّمت. إنّه لا يرقى إلى مستوى الصّمت؛ إنّه لا يستطيع فعل شيء ضد الصّمت.

الوجود والصّمت ينتميان إلى بعضهما. العصور التي لم تعد مرتبطة بالصّمت، كعصرنا الحديث، لا تقلق نفسها حول الوجود الحقيقي للأشياء. إنها مشغولة بالربح، الاستثمار، والفرص الثورية في الأشياء.

> «الشعوب القديمة، حيث صار الإنسان يملك إدراكاً أكثر طفولية تقريباً وأكثر زهداً وتواضعاً لهدايا السماء»[1].
>
> (جان باول).

---

(1) يمكن ترجمتها أيضاً الى«لهدايا اللانهائي».

كمال الشيء يكون في وجوده، لكنّ جزءاً صغيراً فقط من الوجود الكلّي للشيء يتم تناوله في سيرورته، والكلمة التي تصف السيرورة تبحث واقع الشيء إلى الحد الذي تكون أجزاء من وجود الشيء في السيرورة «الوجود يكون متصلاً بالسيرورة مثل الحقيقة بالخيال» (أفلاطون: تايموس). تبدو الوجودية اليوم معنية بالوجود، حقاً، لكنّه ليس الوجود الحقيقي، بل أجزاء منه فقط، خصائص الوجود، مثل الفزع، الحرص، الموت، عدم الطمأنينة - التي تنشغل بها؛ وقد تم تضخيمها بصورة مصطنعة، وتحويلها إلى absolutes [1] (مُطلقات)، بحيث إنّها تمتص فعلا الوجود الحقيقي تماما.

2

كلّ موضوع يملك رصيداً مخفياً من الواقع الذي يأتي من مصدر أعمق من الكلمة التي تشير إلى الموضوع. يمكن للإنسان أن يقابل هذا الرصيد المخفي من الواقع مع الصّمت فقط. يكون الإنسان في المرة الأولى التي يرى موضوعاً، صامتاً باختياره. يدخل الإنسان بصمته في علاقة مع الواقع في الموضوع الموجود حتى قبل أن تمنحه اللغة إسماً. الصّمت هو تقدير شرف للموضوع. لا يمكن تناول هذا الرصيد المخفي من الواقع باللغة الإنسانية.

> «على ارتفاع معيّن، يقول إرنيست هيلّلو، لم يعد المتأمل يستطيع قول ما يراه، ليس لأن موضوعه يفتقر لكلامه، لكن لأن الكلام يفتقر لموضوعه، وصمت المتأمل يصير

---

(1) معنى العبارة هو «أقصى وجود حقيقي»، أي المطلق، وتعرف في الفلسفة واللاهوت أيضاً بـ«الوجود في ذاته أو الوجود الذي يتسامى على ويشتمل على كل الموجودات الأخرى». ويمكن ترجمتها ايضا الى «ثوابت».

ظلاً جوهرياً للأشياء التي لا يقول... كلامه [**يقصد المتأمل**]، يضيف هذا الكاتب الكبير، سفر يقومون به بإحسان عند أناس آخرين. لكن الصّمت وطنه».

(ليون بلوي: اليائس)[1].

لا يخسر الإنسان أيّ شيء لأنه لا يستطيع التعبير عن هذا الرصيد الخفي من الواقع في الكلمات. وضع الإنسان، من خلال هذا الرصيد من الواقع الذي يتعذر التعبير عنه حرفياً، في علاقة مع الحالة الأصلية للأشياء قبل مجيء اللغة، وهذا أمر مهم. إضافة إلى ذلك، فإنّ هذا الرصيد من الواقعية هو دلالة على أنّ الأشياء لم تكن مخلوقة ولم يجمّعها الإنسان بنفسه. لو كانت الأشياء نتيجة لاختراع الإنسان فإنّه سيعرفها في اللغة بصورة مطلقة.

في عالم لا يزال الصّمت فيه فعّالاً، يكون الشيء مرتبطاً مع الصّمت أكثر مما مع الأشياء الأخرى. إنه يعتمد على نفسه، وينتمي إلى نفسه أكثر مما في العالم من دون الصّمت، حيث تكون الأشياء مترابطة، لكنها لم تعد في صلة مع الصّمت. في عالم الصّمت يهب الشيء وجوده إلى الإنسان مباشرة؛ إنه يقف أمامه فوراً، كما لو أنه نقل للتو عن طريق عمل خاص من الصّمت. إنه يبرز بوضوح قُبالة خلفية الصّمت. لا توجد هناك حاجة لإضافة أي شيء إليه لجعله واضحاً.

3

ترى العين، التي تنبعث من سطح الصّمت الواسع، الكلَّ، وليس فقط

(1) ساعد الصديق الشاعر المغربي عزالدين بوركة بترجمة المقطع الموجود في الأصل بالفرنسية، الذي لم يترجم سواء في النص الألماني الأصلي أو الإنكليزي، بل تُرِك في نصّه الفرنسي.. جزيل الشكر له.

الأجزاء، لأنّها ترى بنظرة واسعة وشاملة الصّمت ذاته. تعانق الكلمة التي تنبعث من الصّمت الشيءَ بالقوة الأصلية التي تستلمها من الصّمت، ويضيف الشيء بعضا من هذه القوة إلى جوهره الخاص.

عندما تفقد الكلمة علاقتها الأصلية بالصمت فأنّها تغدو مجرد صوت ويمكنها أن تلمس سطح الشيء فقط. إنّها تضيف علامة فحسب الى الشيء. تلك الكلمات-الأصوات، تلك الكلمات-العلامات، ستفضي الى حياة تخصّها بين أنفسهنّ، كما لو أن الأشياء التي تهدف إلى وصفها لم توجد أطلاقا. والأشياء تقود حياتها الخاصّة أيضاً، شيئاً مع شيء؛ لأنه عندما تم تحطيم الكلمة من خلال عزلها عن الصمت، فإنها لم تعد قادرة على احتواء الشيء الذي تصفه، ويصبح الشيء مفصولا عنها. إنها تفقد كلّ انسجام وتتجاوز حدودها الطبيعية. يبدأ الشيء بإنتاج شيء (كما هو الأمر في عالم اليوم)، كما لو أنّ الإنسان لم يعد موجوداً هناك على الاطلاق. لا شيء يبدو مخلوقا مُجدّدا، ولا حتّى أشياء جديدة، طالما أنّ كلّ الاشياء هي مجرد جزء من تعاقب دائم للأشياء. لهذا يبدو كلّ شيء مملاً وزائداً على اللزوم.

تنصرفُ الأشياء ذاتها عن الإنسان. النُصب القديمة للآلهة في المتحف، إنها تقف، مثلاً، هناك أحياناً، كما لو أنها كانت تتآمر ضد الإنسان. أنها تقف مفصولة مثل جدار أبيض بلا شيء تقوله للإنسان. هذا هو الأمر الغامض والشيطاني حول هذا العالم المعزول للأشياء: إنّه يؤثر في الإنسان بواسطة حجمه وكتلته فحسب. لكنّ واقعاً معزولاً خالصاً هو كارثة. إنه ينخر ويدمّر موارد العالم.

بنيتان عدائيتان تواجهان بعضهما الآخر اليوم: لاعالم الآلة اللفظي، الذي يكون خارجاً لإذابة كلّ شيء في ضجيج الكلمات، ولاعالم الأشياء الآلي، الذي ينتظر فحسب، منفصلا عن اللغة، انفجاراً عالياً

لخلق لغة خاصّة به. مثلما يصيح أخرس أحياناً بصورة عالية جدّاً بحيث يبدو أنّه على وشك تمزيق لحمه في محاولة للحصول على قوة الكلام، فإنّ الأشياء تتصدّع وتنفجر اليوم كما لو أنّها تحاول أن تندفع في الصوت - صوت الفناء.

التاريخ والصّمت

1

يوجد هناك هدوء دوري في مجرى التاريخ الإنساني، في تاريخ الأفراد والأمم، حيث لا يحدث أيّ شيء ذو أهمية «تاريخية» فيه على الإطلاق.

كلّ شيء خارجي يكون ممتصّاً بواسطة الصّمت الداخلي لمثل هذه الفترات. كما لو كانت الحوادث الخارجية تحاول ألا تربك التدفق الهادئ للصمت، كما لو كان عالم الصّمت قد أطعم بسكون الحوادث. توجد هناك فترات بلا حوادث في التاريخ الإنساني، فترات يبدو فيها التاريخ يحمل الصّمت - لا شيء عدا الصّمت - معها؛ فترات يكون البشر والحوادث فيها مختفين تحت الصّمت. ربما تكون الفترة من سقوط الأمبراطورية الرومانية وحتى بداية العصور الوسطى مثالاً لمثل هذه الفترة من الصّمت.

ربما يكون السبب لوجود تاريخ مسجّل بصورة قليلة جدّاً في العصور المبكرة من تطور البشرية هو أن الصّمت كان لا يزال قوة كبيرة في حياة الانسان - الصّمت الذي منه انبعثت كلّ الحوادث التاريخية وإليه تعود. لم يكن هناك «تاريخ» بل صمت فقط. كانت الحوادث والشخصيات

«التاريخية» مجرد حالات يحدّق الصّمت منها في الإنسان. تعلّم الإنسان صمته من تلك الشخصيات والحوادث «التاريخية».

يعيش التاريخ بين أنماط مختلفة - نمط النهار المرئي بوضوح ونمط الصّمت الخفي المظلم.

العديد من الحوادث التي لم يذكرها أو يسجلها التاريخ لم تكن، كما تصوّر هيغل، «من دون مبرّر»؛ أنها حوادث معروفة بالأحرى للصمت فقط.

من الخطأ القول إنه يوجد خللٍ في الإنسان لأنّ طاقاته للمراقبة والتذكّر غير كافية لاحتواء وتذكّر كلّ حوادث التاريخ الكثيرة إلى حد كبير. لم يكن الإنسان عازماً على ملاحظة وتذكّر كلّ شيء يحدث. لا يعود التاريخ للإنسان وحده، بل إلى الصّمت المخفي أيضاً.

يكون الصّمت متاخماً دائماً للتاريخ. هناك مثال على هذا عند نهاية الحرب العالمية الأخيرة، الحرب التي كانت مثل انتفاضة صخب ضد الصّمت؛ حين كان الصّمت موجوداً بقوةٍ لبضعة أيام على الأقل. لا شيء قيل حول الحرب؛ لقد أمتصه الصمت قبل أن يُنطق. كان الصّمت فعّالاً لفترة أكثر من كلّ أهوال الحرب. كان يمكن أن يكون قوة علاجية، وكان يمكن تحويل العالم وإعادة خلقه بحيث يبدأ الصّمت العمل، لو لم يغزوه ويسحقه ضجيج كل الآلة الصناعية. تلك كانت الهزيمة الكبيرة التي عانت منها البشرية بعد الحرب مباشرة.

قلنا إن الصّمت هو كالضجيج جزء من التاريخ. لكنّ الإنسان أبدى اهتماماً بوقائع التاريخ الصارخة فقط. غير المرئي هو جزء من التاريخ كالمرئي. لكنّ الإنسان أبدى بشكل عام اهتماماً فقط بوقائع التاريخ الصارخة. إنه أغفل أمور الصّمت التي هي مهمة بنفس القدر. إنّها مادية محضة أن تعتبر وقائع التاريخ المسموعة فقط مهمةً.

صحيح أن الأشخاص التاريخيين والحوادث التاريخية يبلغون مجال المرئي والمسموع، لكنهم أيضاً يلجون عميقاً في الصّمت: إنها إضافات من أرضية الصّمت. لا تجلب الشخصيات والحوادث التاريخية أفعالها إلى الإنسان فحسب، إنها تجلب أرض التأريخ الصامتة أيضاً. أنها مثل حيوانات الجرّ تسحب الصّمت خلفها.

يكون الجانب الصامت من التأريخ مرئياً بصورة قليلة في المعاناة الصامتة للأفراد والأمم. لكن المعاناة هي أن تكابد أكثر مما تكون مرئياً من الخارج. يبدو أن البشرية تفضّل أن تعاني في الصّمت، تفضّل أن تعيش في عالم الصّمت، حتى وإن من خلال المعاناة، على أن تأخذ معاناتها إلى أماكن التأريخ الصاخبة. هذا هو التفسير الممكن الوحيد للتحمّل الصبور الذي أظهرته شعوب كاملة تحت عَقِب الاستبدادِ.

تكون تلك الأمم المكابدة وسط صياح التأريخ سفيرات من عالم الصّمت، وحليفات لعالم الصّمت. يبدو أن مثل هذه المعاناة العظيمة يمكن أن تكون مفروضة على تلك الشعوب فقط، لأنّ الصّمت العظيم الموجود في العالم يساعد الصّمت الموجود في الإنسان نفسه على تحمّل عبء المعاناة. تصبح المعاناة مرهقة فقط عندما تكون مفصولة عن الصّمت العظيم في العالم، إنّها مجرد جزء من ضجيج التأريخ، وبالتالي عليها أن تتحمّل عبئه وحيدة.

2

توجد هناك، من زمن إلى آخر، كما قلنا سابقاً، فترات في التأريخ يكون الصّمت فيها أكثر جلاء من الضجيج. لا يجري التأريخ في خط مستقيم من ضجيج أحد العصور إلى ضجيج العصر اللاحق. يقُاطع تدفّق الضجيج أحياناً من قبل عصر الصّمت. يمكن للصمت، في الواقع،

أن ينتقل جوهرياً إلى عصر صاخب ويملأه بشيء من سكونه. الذي يحدث اليوم، مع ذلك، هو العكس. إنهما الضجيج والصياح اللذان يغزوان أماكن التاريخ.

توجد هناك شعوب تبدو راكدة في الصّمت لقرون طويلة: هكذا هم الإسبان خلال الثلاثمئة عام الأخيرة. لم يكن الصّمت الذي عاشوا فيه خاوياً، ولم يكن دليلَ عقم، بل كان بالأحرى علامة على قيمة الصّمت السامية والمهمة بالنسبة للإسبان. اعتبرت إسبانيا متخلّفة ومحافظة، لأنّها لم تساهم في الصخب العام وحركية العصر الحديث من خلال تصنيع اقتصادها. لكنّ إسبانيا لم تكن متخلّفة أكثر من طفل يريد أن يبقى مع أمه، أو الذي يعود إلى أمه، وإلى الصّمت.

يوجد هناك في الجوهر الصامت لمثل هذه الشعوب كإسبانيا، خزين هائل من الدعم والعزيمة لكلّ الشعوب الأخرى. كلّنا، شعوب عالم الصّمت الحديث، نعيش على رأسمال الصّمت الذي يعيش على حياة الشعب كالإسبان. تكون مثل هذه الشعوب خامدة، راكدة وصامتة ليس بالنسبة لأنفسها فحسب، بل بالنسبة للشعوب الأخرى، بالنسبة للشعوب الصاخبة واليقِظة أيضاً. لدى إسبانيا والعديد من شعوب آسيا وأفريقيا صمت بأمنٍ ليس من أجل نفسها فقط، بل من أجل البقية أيضاً. سنكون جميعاً مُدمرين إلى درجة كبيرة بواسطة أشرار عالم الضجيج اليقظ إلى حد كبير، إذا لم نتمكن من المساهمة في هذا الرصيد الناجي[1] من الصّمت. كلّ شعوب العالم تنتمي إلى بعضها الآخر. ولهذا نستطيع أن نستخدم صمت الشعوب الأخرى مثلما هم يستطيعون أن يستثمروا يقظتنا الواعية.

---

(1) أو يمكن ترجمتها «الباقي على قيد الحياة».

في العصور التي كان فيها الصّمت أكثر فعّالية من الضجيج، نُسبت أهمية أكبر للدلائل: الطيران الصامت للطيور، المجازات الصامتة للحيوانات المنحورة، الحركات الصامتة للطبيعة.

> «عندما سافر جَلبا، قبل بضعة أيام من موته، إلى روما، وقدمت الذبائح في كل مكان على طول الطريق، حرّر ثور أهاجته ضربة فأس نفسه واندفع نحو عربة الأمبراطور وغطاه مرة بعد أخرى بالدم. بعد ذلك بقليل قُتل جلبا».
>
> (سويتونيوس)[1]

كان جوهر الإنسان الباطني لا يزال طافحاً بالصّمت. لذلك السبب استطاع الصّمت في العالم خارج الإنسان، في أمارات[2] الصّمت، في الطيران الصامت للطيور والحركة الساكنة للطبيعة، أن ينتقل بسهولة إلى العالم الإنساني؛ وكان مستأنساً هناك إلى درجةٍ كبيرةٍ بحيث أنّه فشل تماماً بملاحظة لحظة وصوله.

يمكن أن يكون عالم الكلمة الذي يوجد فيه الإنسان وخلاله، عالم المسيحية، معرضا للخطر عن طريق عالم التباشير هذا. ولهذا تم إبعاده إلى الصّمت بواسطة كلمة المسيح.

حيثما تتكلّم الكلمة، فلا حاجة للعلامات أكثر للتحدث، ولا تجرؤ على التكلّم. لكن عندما لم تعد اللغة ثابتة وواضحة، كما في عالمنا اليوم، فسيخرج الإنسان للبحث عن الدلائل. لكن الدلائل لم تعد اليوم تشير إلى الواقع. إنها تظهر خراب اللغة فقط. إنّها توجد هناك فقط بسبب

---

(1) مؤرخ روماني عاش في الفترة (69-122) بعد الميلاد.

(2) جمع أمارة. كما يمكن ترجمتها الدلائل، النُذر، الدلائل..الخ.

خرابها. يقيناً، أن خراب اللغة هو ذاته دلالة، لكنّه دلالة فقط بمعنى أن شبحا هو دلالة. بكلماتٍ أخرى، إنّه لا يشير إلى مستقبل بل إلى واقع ماضٍ، إلى حطام الكلمة.

ما يعتبره الناس كدليل اليوم يشبه تمثال إله قديم، تقليد مصنوع من جبس لباريس[1] ويتفتّت عند أوّل نظرة إنسان إليه.

4

عندما لا يعُود الإنسان تحت توجيه الصّمت أو الكلمة، فإن التاريخ والحوادث تبادر نفسها لتعليمه. الحقيقة التي لم تعد تصل الإنسان خلال الكلمة تم جعلها واضحة من قبل الحوادث التأريخية. حذّرت كلمة المسيح الإنسان ضد التحوّل إلى شرير، لكن بينما وقعت الكلمة على آذان صماء وجُهت الحوادث لتعلمه. كان الحطام الذي رفض الإنسان أن يتم تحذيره منه في زمن مبكر عبر الكلمة، أوحي للإنسان الآن من خلال حقيقة حطام وجوده. لم تتكلم الحقيقة من خلال الكلمات بل من خلال حوادث الحرب وفظائع أخرى.

> «بينما لم يعد البشر يؤمنون بالوصية أنّه لا ينبغي أن يتحكم فيهم العنف والكراهية والجريمة، أقنعهم واقع الحرب بخطورة الموقف».
>
> (هتلر في نفوسنا)[2].

في حياة المسيح، التاريخ نفسه، التاريخ المقدّس، نطقَ الكلمةَ. الله ذاته دخل الكلمة، الكلمة التي هجرها الإنسان.

---

(1) إشارة إلى الإله باريس.
(2) المقطع المذكور يعود للمؤلف ماكس بيكارد من كتابه «هتلر في نفوسنا».

عالم الأسطورة

يقع عالم الأسطورة بين عالم الصمت وعالم اللغة. مثل أشكالٍ تبدو تلوّح بصورة أكبر مما في حياة عند الغروب المُتَجمّع، فإنّ أشكال عالم الأسطورة تبدو ضِخمة كأنها تخرج من غسق الصمت.

لغتها ليست من كلمات بل من مآثر مكتوبة بصورة كبيرة على جدار الصّمت. تبدو الكلمات التي تنطقها عندما تتم مآثرها أن تكون معدّةً بصورة خاصّة، كما لو أنها في ترقّب لمجيء الإنسان.

جاءَ المسيح مباشرة من الصّمت إلى الكلمة (هذه المباشرة للمسيح منحت أيضاً الكلمات الإنسانية مباشرتها العظيمة)، بحيث نُزع وجُرّد كل العالم بين الصّمت واللغة - عالم الميثولوجيا - من مغزاه وقيمته. الشخصيات في عالم الأسطورة أصبحت الآن شيطانية تسرق اللغة من الإنسان وتستخدمها لسبك رقىً شيطانية. كانت حتى ولادة المسيح قائدات للبشر، لكنها أصبحت الآن قائدات سيئات، غاويات، للبشر.

قبل ظهور المسيح، في القرون الأخيرة قبل ميلاده، اجتاز الصّمت العالم القديم. كانت الآلهة القديمة صامتة، صامتة فعلياً كأضحية للمسيح، الإله الذي جاء إلى الإنسان. الآن حيث لم يعد البشر يقدم قرابين للآلهة، تقدّم الآلهة ذاتها صمتها بِكقربان إلى الإله الجديد. إنها تقدّمه قرباناً لعله يحوّله إلى كلمة.

الأخيلة[1] والصّمت

الأخيلة هي صمت، لكنها تقول شيئاً في صمتٍ. إنّها لغة صامتة. إنّها محطة على الطريق بين الصّمت والكلمة، إنها تقف على جبهات حيث يواجه الصّمت والكلمة بعضهما بصورة أقرب من أيّ شيء آخر، لكنّ هذه المواجهة بينهما يتم حلّها عبر الجمال.

الأخيلة والصور تذّكر الإنسان بالحياة قبل مجيء اللغة؛ إنها تحرّكه بشوق الى تلك الحياة. لكن الجمالية الخالصة، الحب الصرف للصور، هو خطر على الطبيعة الحقيقية للإنسان، لو أنّه أُغري ليذعن الى ضغط هذا الحنين ويخضع اللغة التي هي طبيعته الحقيقية. جمال التصورات والصور ذاته يزيد الخطر فقط.

إنّها الروح التي تحافظ على التصورات الصامتة للأشياء. لا تفصح الروح، مثل العقل، عن الأشياء عبر وسيلة الكلمات، بل على العكس من خلال التصورات عن الأشياء. الأشياء لها وجود ثنائي في الإنسان: أولاً في الروح خلال الأخيلة، من ثم في العقل خلال الكلمات.

تصورات الأشياء محفوظة في الروح كما قبل خلق الكلمات.

---

(1) يمكن ترجمتها ايضا التصوّرات.

التصورات في الروح تشير إلى عالم أعلى ما بعد اللغة، حيث ليس هناك شيء سوى التصورات، حيث تتحدث التصورات ككلمات والكلمات كتصورات.

«الاختلاف بين تفكيرنا الفعال وتفكير الله هو أن الله يفصح عن نفسه خلال الأشياء ذاتها، مستخدما إيّاها كلغة، بينما نعبّر نحن عن أفكارنا فقط بلغة الكلمات».

(سولجر).

ربما تجلب الأشياء صورها إلى الروح بحيث تسلّمها الروح إلى الإله، إلى أصل كل الصور وكلّ الأشياء.

أشياء كثيرة جداً تتراكم على الإنسان اليوم، وأخيّلة عديدة جداً تضغط على روحه. لم يعد هناك سلام صامت في الروح، فقط افتقار صامت للسلام. يصبح الإنسان مضطرباً ومشوشاً، لأن الأخيلة، التي يكون جوهرها خلق الاطمئنان، تجلب إليه الألم. لم تعد الأخيلة تمنح الاطمئنانَ إلى الروح من صمتها الخاص؛ إنها تأخذ الأمان من الروح من خلال إرباكها واستهلاكها بتزاحمها الصاخب بعضها مع البعض الآخر.

تم طرد الصّمت من العالم اليوم. وكلّ ما تبقى هو سكون وخواء. يبدو الصّمت باقياً على قيد الحياة فقط كـ«عيب بُنيوي» محض في تيار الصخب الأبدي. لهذا يكون حفظ التصورات الصامتة في الروح الأكثر أهمية.

لقد قلنا إن الأشياء لها وجود ثنائي في الإنسان، أولاً كأخيلة في الروح، من ثم ككلمات في العقل. الأخيلة الصامتة للأشياء في الروح والكلمات حول الأشياء في العقل تتعايشان في الإنسان. تجلب الأخيلة الصامتة للأشياء في الروح صمتها إلى الكلمات التي تكون حياة العقل. إنها تعمل صامتة في نسيج اللغة؛ إنها تبقيها مجهّزة بالصّمت، بالقوة الأصلية للصمت.

كلما تكون التصورات عن الأشياء موجودة بوضوح في الروح، كلما تحفظ الروح بالتأكيد الكلمات من مخاطر الحرية التي لا يكبح جماحها. لأن هناك قوة جاذبة في الأخيلة، التي تحافظ على أجزاء التصوّر معاً بواسطة قوة الفكرة عن الخيال، بحيث إن التصور المستقر في ذاته، يكون متمركزاً في ذاته. الكلمات التي لا تزال في صلة مع الأخيلة تملك جزءاً في هذه القوة الجاذبة وتكون على هذا النحو مصانة من مخاطر الانفجار العنيف المفاجئ. لأنّ الكلمة الرمزية، الكلمة المرتبطة بتصوّر، هي أقل توسعاً من الكلمة المجرّدة، وهي تحمي الإنسان من مخاطر اتصال الأفكار اللامحدود.

يكون الماضي، الحاضر والمستقبل في وحدة في الصّمت. هذه الوحدة هي أيضاً موجودة في الروح، في الأخيلة الصامتة للروح، لكنها غير موجودة هناك كمعرفة عن الماضي والحاضر - مثل هذه المعرفة هي اختصاص العقل. الوحدة موجودة في الروح كهاجس عن الماضي، الحاضر والمستقبل. يوجد هناك هاجس في الأخيلة الصامتة للروح. الكلمة تملك معرفة لكن التصور يملك هواجسا. وعندما تكون قريبة من أخيلة الروح، فحتى الكلمة تبدأ الاشتراك معها.

لن تكون الكلمة عندها مبهمة وغير محدّدة؛ على العكس فهي تكسب تعريفاً ووضوحاً. قرب التصور يجعل الشيء الذي تصفه مرئياً بوضوح إلى الكلمة. التصور يحمي الكلمة من تسرّب شيء ما لا ينتمي حقاً إلى الكلمة.

الأحلام هي أيضاً أخيلة مليئة بالصّمت. إنها تشبه صوراً ملونة تنتقل بسعادة على سطح الصّمت. ربما تعيد تلك الأحلام الصمتَ إلى الإنسان الذي استهلك كثيراً جدا منه في النهار.

وعندما تتلاشى صور الأحلام، يقطر ندى الصّمت الذي تبقى بهدوء في ضجيج النهار الجديد.

الصور في الأحلام هي أكثر عنفاً من الاخيلة في الروح. ولهذا السبب يكون الماضي، الحاضر والمستقبل مشوشة بعنف أكبر في الأحلام؛ ولهذا تكون بعض الأحلام تنبؤية جدّاً.

يدمّر التحليل السايكولوجي طبيعة الأحلام الجوهرية؛ إنه يحطم قوة صمتها عن طريق تسليمها إلى مماحكة التحليل الصاخب. تحليل الأحلام السايكولوجي هو احتلال عالم صمت الأحلام من جانب الصخب.

الحب والصّمت

هناك صمتٌ أكثر من اللغة في الحب. أفروديت، إلهة الحب، خرجت من البحر، من بحر الصّمت. أفروديت هي أيضاً إلهة القمر، التي قبضت على صمت الليل بشبكة خيوط ذهبية ألقتها إلى الأرض.

كلمات العشاق تزيد الصّمت. إنها تخدم فقط لجعل الصّمت مسموعاً. كل الظواهر الأخرى تأخذ شيئاً من الصّمت؛ وحده الحب الذي يمنح من نفسه إلى الصّمت.

العشاق هم متآمرو الصّمت. حين يتحدث الرجل إلى حبيبته فإنها تنصت إلى الصّمت أكثر مما تنصت إلى الكلمات المنطوقة لحبيبها. «أسكت»، تبدو أنها تهمس له. «أسكت لأتمكن من سماعك!».

يكون الماضي والحاضر والمستقبل في وحدة في الصّمت. ولهذا رُفع العشاق فوق استمرارية الزمن القاسية. كلّ شيء يمكن أن يبدأ ثانية. كلا المستقبل والماضي مطوقان بالحاضر الأبدي. يقف الزمن ساكناً من أجل العشاق. تأتي فطنة وهواجس العشّاق من الوحدة التي يكون فيها الماضي والحاضر والمستقبل موجودة في الحب.

لا شيء يوقف التدفّق الطبيعي للحياة العادية بقدر ما يفعله الحب. لا شيء يعيد العالم إلى الصّمت أكثر من الحب.

خلال الصّمت الموجود في الحب، يتم انتزاع اللغة من عالم الصخب والضجيج اللفظي وتعاد إلى أصلها في الصّمت. العشاق هم أقرب إلى بداية كلّ الأشياء، وقت كانت اللغة غير مخلوقة بعدُ، وقت كان يمكن ظهور اللغة في أي لحظة من كمال الصّمت الخلّاق.

ليس اللغة وحدها، بل العشاق أنفسهم تم تخليصهم بالحب من عالم «الظواهر الناشئة» (غوته)، ويقادون إلى الظواهر الأولية الأصلية. الحب ذاته هو الظاهرة الأولى، ولهذا السبب يكون العشاق معزولين بين الناس الآخرين، لأنّهم يعيشون في عالم الظواهر الأولية، في عالم حيث يكون الساكن أكثر أهمية من الديناميكي، والرمز أكثر أهمية من التوضيح، والصّمت أكثر أهمية من الكلام.

الإحتراس الموجود في الحب هو الإحتراس الموجود في كلّ البدايات. يتردّد العشاق في النزوح من عالم البدايات الذي يسكنونه في الحب إلى عالم الضجيج الصاخب.

كلّ التحوّلات التي يمكن أن يمر بها الرجل أو المرأة خلال تجربة الحب تأتي من تلك البداية الجديدة التي هي هبة كل الظواهر الأولية الأصلية. والقدرة التي يستمدّونها من الحب تأتي من القوة التي يتمتع بها الحب باعتباره أحد الظواهر الأولية.

تشرق وجوه العشاق بألق ضوء الحب الأصلي. ولهذا السبب تصبح الوجوه أكثر جمالاً في الحب.

كلّ ألغاز العشاق تنبع من متاخمة أصول الحب الخافية. كلما تعيش قريبة من هذا اللغز الأصلي كلما سيكون حبهم أكثر ثباتاً ومكابدة.

العشاق مضطربون، إنها حقيقة. إلا أنه اضطراب لغز الحب المرتد من الظاهري نحو الواقع، بينما هو يحوم مرتعشاً على تخوم العالم الخارجية.

إلا أنه يحن إلى وعي الذات، وليس هناك ظاهرة أولية أخرى تجازف بالمخاطرة إلى جد بعيد في هذا العالم الخارجي كما هو الحب. ليس هناك في أي واقع ظاهري توجد الظاهرة الأولية واضحة جدّاً كما هو في الواقع الظاهري للحب. وليس في أيّ مكان آخر يكون اللغز الأصلي والواقع الظاهري قريبان إلى بعضهما كما في الحب.

لقد قلنا إن هناك صمتاً أكثر من اللغة في الحب. يصل كمال الصّمت الموجود في الحب إلى الصّمت الموجود في الموت: الحب والموت ينتميان إلى بعضهما. كل فكرة وكل صنيع في الحب يصل من خلال الصّمت إلى الموت. لكن معجزة الحب هي حيثما يكون الموت يظهر الحبيب.

> «ثمت صمت في الحب أكثر من الكلام: إنّ من الأسهل بصورة لا تقبل المقارنة أن يحب المرء عندما يكون صامتاً، مما عندما يتحدث. يكون البحث عن الكلمات مؤذياً لحركات القلب العاشق. لو أن المرء لا يفقد في الحياة شيئاً سوى الحب، فإنّ الفقدان يكون عظيماً، لو يعرف المرء القيمة الحقيقية للحب».
>
> **(هامون، تم الاستشهاد به في بريموند: الصوفية والشعر).**

إنّ من الأسهل أن تحب عندما تصمت. إنّه أسهل لأنه يمكن للحب أن يصل في الصّمت إلى أقصى زوايا المكان. لكنْ هناك خطرٌ أيضاً في هذا الصّمت: هذا الفضاء الذي يمتد إلى أقصى الزوايا هو صمت لا محدود ومطلق؛ ثمة فسحة فيه لكل شيء، حتى للأشياء التي لا تخصّ الحب.

إنّها اللغة التي تجعل الحب في البداية واضحاً ومحدد المعالم، التي تمنحه ما يعود إليه فقط. إنّها اللغة التي تجعل الحب ملموساً أولاً وتضعه

بثبات على أرض الحقيقة الصلد. خلال اللغة وحدها يمكن للحب أن يصبح حب الرجل والمرأة الحقيقي.

«الحب هو الينبوع العادي الذي غادر سرير الحصى المحفوف بالأزهار والذي يغيّر كتيّارٍ أو كنهر طبيعته ومظهره، الآن، مع كل حركةٍ، ويتدفق أخيراً في محيط لا متناهٍ، الذي يتراءى للعقول الناقصة أن يكون مليئاً بحركة رتيبة، لكن الأرواح العظيمة تصبح على شواطئه مستغرقة في تأمّل لا نهائي».

(بلزاك)

الصّمت ووجه الإنسان

1

الوجه الإنساني هو التخوم القصوى بين الصّمت والكلام. إنه الجدار الذي تنبعث منه اللغة.

يشبه الصّمت وأحداً من أعضاء الوجه الإنساني. العيون والفم والحاجب ليست موجودة فحسب في الوجه الإنساني، بل الصّمت موجود هناك أيضاً. إنه موجود في كلّ مكان في الوجه: إنه الأساس لكلّ جزء.

الخدود هي الجدران التي تغطي الكلمة من الجانبين. لكنّ الحركة العنيفة لخطوط الأنف تبيّن أن ما تم ربطه بين سطوح الخدود يريد أن يخرج إلى الخارج.

لا يسعى الصّمت الخروج من قوس الحجاب إلى الخارج: إنه يترشح إلى الأعماق مثل الندى.

من فتحتي العينين يأتي النور عوضاً عن اللغة، الضوء الذي يجلب السطوع إلى تجمع الصّمت في الوجه. فإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الصّمت سيكون مظلماً.

عندما يتحدث الفم فكما لو أنه ليس الفم نفسه بل الصّمت خلفه الذي يدفعه إلى الكلام. الصّمت مملوء بحيث يمكن أن يقود الوجه إلى الأعلى إن هو لم يسترخِ ويحرر نفسه في اللغة. كما لو كان الصّمت نفسه يهمس كلمات إلى الفم. الصّمت يصغي إلى نفسه عندما ينطق الفم.

في الصّمت فإن خطوط الفم تشبه أجنحة مطبقة لفراشة. عندما تبدأ الكلمة بالحركة، تتفتح الأجنحة وتطير الفراشة.

يحدث هذا العمل الاستثنائي لخلق الكلام من الصّمت من دون ملاحظة وبلا دراماتيكية في الوجه. لهذا فثمت هدوء في الوجه. كل حركاته هادئة، لأنّه لم يعد هناك شيء مهم الآن، بحيث يتقدّم الحدث الأعظم، خلق الكلمة، بصورة هادئة جدّاً. من الغريب جدّاً أن الصّمت لم يتلاشَ عبر الكلمة التي تنبعث من الصّمت، بل إن شدّته ازدادت لذلك، وأن الكلمة نفسها ازدادت بواسطة تكثيف أكبر للصمت.

كانت قوة الصّمت على الوجه الإنساني، مرة، كبيرة جدّاً، بحيث كان الصّمت يمتصّ كلّ الحوادثِ الخارجية. لهذا كانت مصادرالعالم كأنها غير مستهلكة أو مستثمرة.

2

لو لم يملك الإنسان لغة فإنّه لن يكون سوى تصوّر ورمز ومتماثلاً مع صورته الخاصّة، كالحيوان الذي يكون مثلما يبدو تماماً. إنّ مظهر الحيوان هو طبيعته، وصورته هي كلمته. لو أن الإنسان لا يملك لغة فهو ومخلوقات الأرض لن يكونوا سوى صور ورموز. وستكون الأرض مليئة بالتذكارات؛ الله قد أنشأ المخلوقات كأنها كانت تذكيراً بنفسه.

لكنّ الإنسان لديه لغة، ولهذا فإنّه أكثر من صورة وذكرى. إنه سيّد لصورته، لأنه يقرّر من خلال الكلمة فيما أنّه يريد أو لا يريد قبول ما

يظهر من طبيعته في الصورة، المظهر الخارجي والشكل الذي يعرض إلى العالم، بمثابة نفسه. إنّه حر من خلال الكلمة ليرفع نفسه إلى أعلى من صورته ومظهره الخارجي ليصبح أكثر من صورته.

يمكن أن يكون الإنسان على ما يبدو، لكنّه ليس مضطراً إلى ذلك: إنه يستطيع أن يقرّر من خلال اللغة في ما إذا كان يريد أن يسمو أعلى من صورة وجهه.

«عندما التقى زوبيروس بسقراط، الذي تباهى بأنه يستطيع تحديد شخصية الإنسان من مظهره، وتكهّن بوجود عيوب متعدّدة في سقراط، ضحك منه الجميع بصورة مهينة إلا سقراط نفسه. اتفق سقراط معه: بأنه، سقراط، قد جاء إلى العالم مع تلك العيوب، لكنه خلّص نفسه منها بمساعدة العقل».

(شيشرو)

في ذلك المكان توجد كرامة الوجه الإنساني: حيث يقرر الإنسان فيما سيقبل ما تم التعبير عنه فحسب في صورة الوجه الصامتة. عبر هذا القرار برز الإنسان من التدفّق الطبيعي المحض للكائنات، وخلق نفسه مجددا من خلال قوة العقل والروح. لا يحتاج الإنسان أن يكون معتمداً على مظهره الخارجي: تبقى الكلمة هي الحكم الأخير والسيد.

يتحدّد الإنسان بواسطة اللغة أكثر مما عن طريق أيّ شيء آخر. إنه مرتبط باللغة أكثر مما بجسده المادي ونظام الطبيعة المادي. العزلة المحيطة بالجسد الإنساني موجودة هناك لأنه تم رفع الإنسان أعلى من كلّ ظواهر الطبيعة المادية الأخرى. اللغة تراقبه وهو ينتمي إلى اللغة. لكنّ شفافية القوام الإنساني تنبع من علاقات الإنسان مع اللغة:

الروح الموجودة في اللغة تجعل القوام الإنساني شفاف، تحرّره بحيث يقف الشكل الإنساني هناك كما لو آنّه غير مرتبط بالجسد المادي على الإطلاق.

عندما يكف الإنسان عن الإرتفاع خلال اللغة فوق ما يبدو إليه - أعني، فوق مظهره الخارجي الصافي، يكون هذا الجسد الخارجي، إذن، مفصولاً عن الكلمة ويصبح طبيعة خالصة، بل طبيعة وضيعة شريرة.

ربّما اندفع الإنسان في بربرية عصرنا الفائقة، لأنّه بعد أن صار حالياً طبيعة حيوانية خالصة بعد فقدانه النظام الذي أُقيم من جانب الروح في اللغة، يحاول أن يؤسس علاقة بين نفسه والنظام الحيواني.

لم تعد الطبيعة الإنسانية، بعد أن سقطت من الكلمة، قادرة أيضاً على إقامة علاقة بين نفسها ونظام الطبيعة الإنساني الظاهري. فهي تقع في هوّة بين الكلمة التي لم تعد موجودة معها وبقية الطبيعة التي لا تتمكّن من إقامة علاقة معها. إنها تقع بخبث بين الطبيعة والكلمة. وعوضاً عن الكلمة فلا تملك سوى الصراخ والفراغ بديلاً من الصّمت.

> **«يستطيع الإنسان أن يحفظ شكله الإنساني فقط طالما هو يؤمن بالله».**
>
> **(دوستويفسكي)**

3

القوام الإنساني في حد ذاته، من دون الكلمة، القوام الإنساني الصامت، يشبه ظاهرة خارجية محضاً؛ بكلمة أخرى، كما لو آنّه يظهر في لحظة واحدة إلّا ويختفي في اللحظة التالية. تظهر الحيوانات بتلك الصورة أيضاً: مثل صورة في حلم تنتمي إلى حلم متلاشٍ أكثر مما إلى واقع ثابت. تبدو الحيوانات وقد طردت من حلم إنساني. يكون الإنسان

دائماً خائفاً قليلاً من الأمور التي سقطت من أحلامه، ومن ثم يقف محدّقاً بها كما لو أنّها كانت غريبة تماماً عليه.

تملك الحيوانات حقيقة عنيفة. لا شيء يجعل حضوره الواقعي محسوساً بصورة عنيفة جدّاً مثلما الحيوان، ومع ذلك، فهو مجرّد واقع اللحظة العابرة. إنّه نفس واقع اللحظة التي تكون ميزة الأخيلة في الأحلام (لا تملك الحيّة حتى واقع اللحظة هذا. كما لو أنها دائماً تنزلق خلال الثقوب، مثل تيّارٍ عابث بين ثقبين، وهو ما يجعلها حساسة جدّاً بالتباين مع حيوانات أخرى وبالاختلاف مع الإنسان. من الجانب الآخر، لا تفتقر الطيور في الواقع له. إنها تمرق بسرعة، هذه حقيقة، لكن طريقة طيرانها تشبه قوساً يعود ثانية وثانية إلى بدايته).

خلال اللغة فقط يصبح الإنسان أكثر من مجرد ظاهرة فيزيولوجية ويتخطّى حدود جسده. إنه يصبح خلال اللغة قائماً بثبات: ليس حيواناً زائلاً، عابراً، بل وجودا حقيقيا متينا وثابتا، ويبقى متماسكاً بواسطة اللغة. تُخرج الكلمة الإنسان من حالة واقع الحيوان الزائل المحض إلى حالة اللحظة التي تدوم. الكلمة التي تكون حقيقة تخلق واقعاً دائماً، ودعماً دائماً ليس فقط لما يبقي نفسه متماسكاً بل للأشياء خارج ذاتها كذلك.

الواقع الآني للحيوان والحقيقة الدائمة للإنسان هما مثل هذين الصفتين المختلفتين بصورة مطلقة، بحيث لا يمكن للإنسان أبداً أن يخرج مباشرة من حيوان إلى نوع إنساني[1]. عمل خاص كان ضرورياً: عمل الحقيقة خلال الكلمة - لكي يحصل الإنسان على طبيعته الإنسانية المتفرّدة.

---

(1) ترجمت العبارة في الترجمة الإنكليزية «من الحيوان إلى الطبيعة الإنسانية». والعبارة توجّه نقداً للفكرة الداروينية القائلة بانتقال الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان عبر التطوّر التاريخي.

عندما يفقد الإنسان الكلمة التي تكمن فيها الحقيقة والقوة لخلق الواقع الدائم للطبيعة الإنسانية، فإنه يصبح شبيه - الحيوان، عابراً وسائلاً، وهذا ينتج زوالاً وسيولة أكثر. يعوم الإنسان تماماً هنا وهناك بلا هدف في سائل هائل يجري بخفة، محاولاً التحرّك أسرع من السائل.

4

الإنسان الذي لم يعد يسمو، مع الكلمة، عبر قرار الروح، على حدود جسده، يكون متطابقاً مع مظهره وخط يده. يمكن للمرء أن يذكر خاصيّة مثل هذا الإنسان من وجهه ومن خط يده ومن ردود فعله السايكولوجية. لكن الإنسان الذي يكون معروفاً بهذه الطريقة ليس هو الإنسان الحقيقي، بل الإنسان الذي تقلصت ملامحه عن طريق الانفصال عن الكلمة الحقيقة. يكون عالِمُ الفِراسةِ، عَالِمُ تفسير الخطوط والسايكولوجي موثوقين فحسب في اكتشافاتهم بمقدار ما تُطبّق على هذا الإنسان المتضائل. إنهم، في الحقيقة، يمنحون بادّعائهم، أن يكونوا أنثروبولوجيين، نوعا من اعتبار علمي إلى هذه الحالة المنقوصة للإنسان. لدى هذه الأنثروبولوجيا وصفة خفيّة ومظلمة التي تكون مشتركة لكلّ شيء يتعلق بالإنسان الذي أُنزل إلى مستوى الحيوان.

إنه ليس خطأ عَالِم الفراسة وعَالِم تفسير الخطوط والسايكولوجي فقط، أن يُحكم على الإنسان ويقاس بهذه الطريقة. إنّه على الغالب خطأه لعدم تساميه أعلى من حالة الواقع الخالص الذي يجد نفسه موضوعاً فيه. يعوز وجه مثل هؤلاء البشر المراكز الخفية التي تتحرّك نحوها أجزاء عديدة، والتي يتم تنظيمها منها. بدلاً من ذلك تظهر بصورة غير منسجمة في وجه مقسّم مسبقاً، مُحَرّضة المراقب ليقسّمه اكثر. إنها تظلّ مكشوفة وعارية مطالبة بفحصٍ. إن ما يعوز في مثل هذا الوجه، علاوة على ذلك، هو الصّمت الذي يقتضي صمتاً من المراقب ويخلق في الحقيقة صمتاً فيه.

في مثل هذا الوجه فإنّ التجارب التي مرّ بها تكون جميعها محفورة بعمق، وكلّها واضحة بجلاء جدّاً، كلّها بارزة للعيان ومهمة. لا يوجد هناك اتساع صمت ليوازن ويستوعب الخطوط التي تحدّد الوجه.

في الحقيقة، إنّ تلاشي الخطوط العميقة المحفورة بواسطة التجربة في الصّمت، تشير إلى الوحي المهم بأنّ هناك عالماً آخر وراء التجربة الشخصية، حيث لن يكون الذاتي مهمّاً: العالم الموضوعي.

إذا لا يوجد هناك صّمت في الوجه، فإنّ الكلمة لم تعد مغطاة بالصّمت قبل خروجها من الفم: كلّ الكلمات تكون موجودة في الوجه بشكل صريح. وحتى حين لا تكون الكلمات منطوقة حقاً، فلن يكون هناك بعد صمت حقيقيٌ: وهذا يعني فقط أن الكلمة- الآلة تأخذ راحة. وحتى حين يكون الفم مطبقاً، فإنّ الضجيج لا يندفع من الفم فحسب بل من كلّ جزء من الوجه. لا يكون كامل الوجه أيّ شيء سوى سباق بين الأجزاء المختلفة لترى أيّاً يستطيع أن يصرخ أعلى.

5

يؤثّر المنظر الطبيعي والريف على الجسد الإنساني والوجه الإنساني، لكن قوة المنظر الصّامتة تحتاج إلى الصّمت في الوجه الإنساني، اذا كان عليها أن تمارس نفوذها. يستطيع المنظر الطبيعي أن يشكّل الوجه الإنساني إذا اقتضى أن يمارس تأثيره. يستطيع المنظر الطبيعي تشكيل الوجه الإنساني فقط خلال مجال الصّمت. قوى المنظر الطبيعي بالغة وتحتاج إلى مقاربة واسعة – مقاربة الصّمت الواسعة، تتمكّن من خلالها أن تطوف في الوجه الإنساني وتشكّله بأبداًع.

يصبح المنظر الطبيعي الصامت صمتاً ناطقاً في الوجه الإنساني. يملك ساكن الجبل صورة الجبال مطبوعة على وجهه بثبات. الصخور الشاهقة هي العظام في مثل هذا الوجه. الممرات، والأماكن المخفية،

وذرى الجبال موجودة في مثل هذا الوجه، ولمعان العيون فوق الخدود تشبه سطوع السماء فوق الجبال المتعانقة المظلمة.

علامات البحر هي أيضاً مصوّرة بوضوح في وجوه أولئك الذين يعيشون عند البحر. الأجزاء البارزة من الوجه - الأنف، الفم، والنتوءات - تشبه سفناً جامدة على بحر الوجه الواسع.

«تحرّكت السفينة المنحدرة بخفة نحو الساحل. من ثم اقترب بوزيدون ومسح عليها براحة يده ورأى: إنها تحولت فجأة الى صخرة وتستقر متجذرة بثبات على أرضية البحر». (هوميروس)[1]

تبدو العيون تحدّق من البعد الى الخارج على سفن وجهها المتجمدة، عندما يكون البحر بعض المرات من الخارج هادئاً، كأنّ أعماقه هاجعة بالضبط، واحيانا عندما تحاول السفن الجامدة أن تتحرك- لكنّ سفينتين ثقيلتين تبحران فجأة في الخارج عبر البحر الحقيقي، وتكون سفن الوجه متجمّدة ثانية كما كانت في السابق.

يملك المنظر الطبيعي مَعلمه الخاص في الوجه الإنساني، ويبدو الوجه الإنساني حائماً فوق منظره الطبيعي، رافعاً نفسه فوق وما بعد ذاته، متحرراً من نفسه. لم يعد الذاتي ظاهراً، ويصبح الموضوعي في الوجه الإنساني مرئياً بوضوح. هذه علامة على أن الوجه الإنساني لا ينتمي إلى نفسه فقط.

مع ذلك، هذا لا يعني أنه تم تحطيم الذاتية عندما يشارك الوجه الإنساني في الموضوعي. الذاتي وضع ببساطة في مكانه المناسب، مثل توقيع الرّسام على لوحة القرون الوسطى: مونغرام[2] يتألف من الحروف الأولى لمسيحي مُعَلّم ولقب نصف مخفي في زاوية اللوحة.

---

(1) شاعر ملحمي اغريقي اسطوري، ينسب اليه تأليف ملحمتا الالياذة والاوديسة.

(2) المونغرام هي الطرّة أو علامة ترمز إلى شخص ما وتتألف من أحرف اسمه الأولى مرقومة على نحو متشابك.

إذاً لا يوجد هناك صمت في الوجه، فالوجه يصبح إذاً بالمعنى الحقيقي للكلمة متمدناً، مقتلعاً من الريف، وحرفياً هادئاً، مثلما تكون مدينة هادئة بصورة اكبر، ومستغرقة بنفسها أكثر مما هو الريف.

لا يمكن أن يظهر المنظر الطبيعي في مثل هذا الوجه، لكن الإنسان قد لا يزال يمتلك في بعض الأحيان «علاقة» مع الريف، قد لا يزال يمتلك فهماً جوّانياً له. يكون مثل هذا الوجه بالتالي فارغاً من المنظر لكنه مليء بصورة كبيرة بدلاً من ذلك بـ«الجوّاني». أو على الأصح، لا يوجد هناك صمت وليس ثمت منظر طبيعي لتغطية وحماية «الجوّاني».

> «لا يوجد هناك اليوم بحر أو جبال في الوجه. لم يعد الوجه يرحّب بهم أكثر، لقد رماهم إلى الخارج. لا مكان لهم في الوجه. كل شيء محددّ جدا، بحيث يبدو كما لو تم هزّ العالم الخارجي، وأُبعد بهذا التحديد الدقيق في الوجه. تم قطع الأشجار[1] في الوجه، جُرفت الجبال وجُففت البحر - وأقامت المدينة العظيمة نفسها في فراغ الوجه».

(بيكارد: الوجه الإنساني).

---

(1) هنا بمعنى قطعها والإطاحة بها.

الحيوانات والصّمت

تكون طبيعة الإنسان أكثر وضوحاً في الكلمة مما في مظهره الخارجي «تكلّم كي أراك!»، قال سقراط.

من الجانب الآخر، تكون طبيعة الحيوانات جليّة تماماً في مظهرها. يكون الحيوان مثلما يبدو تماماً؛ ينبغي أن يكون كذلك. يمكن للإنسان أن يكون كما يبدو، لكنّه لا يحتاج كي يكون، لأنه يستطيع أن يسمو على مظهره الخارجي خلال موهبة اللغة: يمكنه أن يكون أكثر مما يكون في مظهره الخارجي. الإنسان يصبح جليّاً في اللغة، الحيوانات في صمت مظهرها الجسدي.

هذا هو كمال الحيوانات - لأنه لا توجد هناك فوارق بينها، كما توجد في الإنسان، بين الكائن والمظهر، الطبيعة الداخلية والطبيعة الخارجية. هذا التجانس الكامل هو ما يشكّل براءة الحيوانات.

«صُرف وقت كثير على الجوهر الداخلي للانسان بحيث اقتضى أن يمنح مظهره أقل ما يمكن».

(غوته).

يبدو المظهر الملوّن ذاته لبعض الحيوانات شبيهاً بمحاولة اختراق

الصّمت بأدوات لون صارخ. الصّمت الذي لا يولّد اللغة يغيّر نفسه إلى ذات اللون الصارخ.

إذا كان الامر كما يقول أفلاطون، إنّ الحيوانات نشأت من الإنسان (تيمايوس)، لكي يظهر هو، الإنسان - اذا كان الامر كذلك، عندئذ تم طرد، مع الحيوان في الانسان، كثافة صمت الطبيعة من الإنسان ايضا، لكي يكون للكلمة حيّزاً كي تكون الكلمة.

لكنّ الحيوانات تبقى قريبة إلى الإنسان ومعها الصّمت المكثّف الذي فيها. في الأزمنة الغابرة كانت الحيوانات أكثر أهمية للإنسان مما هي اليوم. جعل صمتُ الحيوانات الكلامَ الإنساني والحركةَ الإنسانية أثقل وأبطأ. تحمل الحيوانات الصّمت معها بالنيابة عن الإنسان. إنها لا تحمل عبء الأشياء على ظهرها فحسب، بل عبء الصّمت أيضاً.

الحيوانات مخلوقات تقود الصّمت خلال عالم الإنسان واللغة وتضع الصّمت أمام الإنسان دائماً. تم تهدئة أشياء عديدة أربكتها الكلمات الإنسانية بواسطة صمت الحيوانات مرة أخرى. تتحرّك الحيوانات خلال عالم الكلمات مثل كارفان صمت.

الحيوانات هي صور الصّمت. إنها حيونات - صور الصّمت أكثر مما هي حيوانات. كما تنعم الصور النجميّة النظر بصمت السماء، فان الحيوانات - صور الأرض تنعم النظر بصمت الأرض.

يكون كلّ العالم، ذاك الذي من الطبيعة والذي من الحيوانات، مليئاً بالصّمت. تبدو الطبيعة والحيوانات مثل نتوءات الصّمت. لن يكون صمت الحيوانات وصمت الطبيعة نبيلاً وعظيماً جدّاً لو كان مجرد فشل لتجسيد اللغة. عُهد بالصّمت إلى الحيوانات وإلى الطبيعة كشيء خلق من أجلها.

صمت الحيوانات مختلف عن صمت البشر. صمت البشر يكون

شفافاً وساطعاً لأنه يواجه الكلمة، يحرّر الكلمة في كلّ لحظة ويعيدها إلى نفسه ثانية. إنه صمت مسترخٍ، يُمسّ بالكلمةِ، ويَلمسُ الكلمةَ.

صمت البشر يشبه ليل البلدان الشمالية مضاءة بنور النهار.

تملك الحيوانات صمتاً ثقيلاً، مثل كتلة حجر. تخطّت الحيوانات كتل الصّمت، محاولة لإبعاد نفسها لكنها مقيدة إليها دائماً.

يكون الصّمت منعزلاً في الحيوانات؛ ولهذا فهي وحيدة.

كما لو كان الصّمت ملموساً في الحيوانات بصورة مادية. إنّه يشقّ طريقه مباشرة خلال (الفضاء) خارج الحيوان، وتكون الحيوانات غير محرّرة لا لأنّه يعوزها الكلام فقط، بل وأيضاً لأن الصّمت ذاته يكون غير متحرّر: إنه صمت صلب ومتخثّر.

صحيح أن الغراب ينعب، والكلب ينبح، والأسد يزأر. لكن الأصوات الحيوانية هي مجرّد رنين في الصّمت[1]. كما لو أن الحيوان كان يحاول فلع الصّمت بقوة جسده.

«ينبح الكلب اليوم كما نبح منذ بداية الخليقة»، قال يعقوب غريم، ولذلك السبب يكون نباح الكلب يائساً جدّاً لشق الصّمت، لأنه جهد عبثي، منذ بداية خلق الكون وحتى اليوم الراهن، وهذه المحاولة لشق صمت الكون تكون دائماً مثيرة للإنسان.

أصوات الطيور ليست يائسة مثل أصوات الحيوانات الأخرى. تبدو الطيور ملقية نغمات أصواتها مثل كراتٍ نحو الصّمت، وكما في لعبة؛ فإنها تبدو قابضة على نغماتها مرة أخرى أثناء سقوطها من سطح الصّمت.

(1) يمكن ترجمتها أيضاً «شق، صدع».

الزمن والصّمت

الزمن مبعثر مع الصّمت. تمضي الأيام الواحد تلو الآخر بصمت. يظهر كلّ يوم من دون ملاحظةٍ كما لو أنزله الله للتو من سكونه. تمر الأيام خلال السنة بصمت. إنها تمضي على إيقاع الصّمت: يكون محتوى النهار صاخباً، لكن مجيء النهار صامت.

ليس الأمر المثير جدّاً هو المقياس المتساوي للساعات، التي هي نفسها كلّ يوم، التي تربط يوماً بالآخر، بل المقياس المتساوي للصمت الذي يولد معه كل يوم من جديد.

تمضي الفصول بصمت خلال العام المتغيّر. لا يأتي الربيع من الشتاء؛ إنه يأتي من الصّمت الذي يأتي منه الشتاء والصيف والخريف.

أحد صباحات الربيع تقف شجرة الكرز مليئة بالأزهار. لا تبدو الأزهار البيض أنّها نمت على الشجرة، بل إنّها سقطت من خلال غربال الصّمت. لم يُسمع أيّ صوت؛ انسابت بجوار الصّمت برفق وكان ذلك ما جعلها بيضاء.

غنت الطيور على الأشجار. كما لو أن الصّمت قد نفض آخر الأصوات منه. أغنية الطير تشبه إشارات الصّمت المُنتخَبة.

فجأة يظهر الأخضر على الأشجار. بينما تقف شجرة إلى جنب الأخرى، كما لو أن الأخضر قد مرّ بصمت من شجرة واحدة إلى أخرى، كما تمرّ الكلمات من واحدة إلى أخرى عبر الحوار.

فجأة يأتي الربيع: يحدّق الإنسان في البعيد كما لو أنه لا يزال يستطيع رؤية النُذر التي تجلب الربيع في الصّمت. في الربيع تحدّق عيون الإنسان في البعيد.

تكون حقيقة الربيع رقيقة جدّاً بحيث أنها ليست بحاجة إلى اقتحام الجدران القوية للزمن بالضجيج. أنها ببساطة تتسرب خلال شقوق الزمن وتظهر فجأة.

الأطفال الذين يلعبون في الساحة هم أول من يمرّ خلال الشقوق. إنّهم يصلون حتى قبل طلوع الأزهار بكراتهم في الهواء ورخامهم[1] على الأرض.

إنهم يظهرون فجأة ليس كما من بيوت أهلهم، بل كما لو أنهم خرجوا إلى جانب الربيع من شقوق. إنهم يرمون كراتهم عالياً في الهواء؛ يصرخون عالياً، تبين تلك النُذر الأولى من الربيع الطريقَ إلى أشياء الربيع التي تتبع في الخلف.

خلف كلّ أصوات الربيع يكون صمت الزمن. إنه جدار يعيد كلمات الأطفال مثل كُرات من جدران البيوت.

تجعل الأزهار أنفسها على الأشجار خفيفة جدّاً، كما لو أنها تريد أن تستقر على الصّمت؛ وأن تُحمل إلى داخل الربيع القادم في دورة الفصول المتحرّكة على الدوام، دون أن يفطن إليها حتى الصّمت نفسه، مثلما تحطّ الطيور على السفن لتحملها إلى مسافات أبعد. من ثّم، يحلّ الصيف، بغتة تماماً.

---

(1) «ما يعنيه هنا» أجسامهم.

الهواء حارّ في عنف غزوته. تظهر أشياء الصيف فجأة بكمالها، كما لو أنها قد ظهرت بقوة إلى الخارج من مخبأ. لكن لم يسمع أحد بقدوم الصيف. فقد جُلب بصمت أيضاً. انفتح المخبأ، الذي حبس كمال الصيف، بقوة في الصّمت. لم يسمع أحد صوتاً عندما قضى الزمن على الصيف بخبطة عنيفة. جرى كلّ شيء بصمتٍ.

لكن الصيف قد ظهر الآن، بدأ كل شي يصدح؛ تكون اصوات الحيوانات أعنف، يلقي الناس كلماتهم كالكُراتِ؛ تتداعى الأصوات من الحدائق والحانات كما لو أن المكان في الداخل كان ضيقاً جدّاً لها. إنه انتصار أصوات الصيف على الصّمت.

الصّمت مختبئ الآن في الغابة. الغابة مثل نفق أخضر يفضي من صخب الصيف إلى الصّمت. وكما يرى المرء بعض الأحيان أضواءً في النفق، فإنّ غزال الغابة يومض مثل أنوار تضيء الصّمت.

الصّمت الآن في مكان مخفي، لكنّه يستطيع في أيّ لحظة أن يخرج ويغطي كلّ شيء ثانية. يكون كلّ صوت من الصيف في هاجرة نهار صيف حار ممتصاً من قبل الصّمت المهيمن تماماً. أحياناً كما لو يقف الصّمت ساكناً تماماً. إنه يقف بثبات، كما لو أنه لن يتحرّك ثانية أبداً. تبدو أن تكون صورته مطبوعة على الهواء وتبقى فيه.

من ثم يأتي الخريف بعد أن استنشق الصّمت نفساً جديداً.

تستقرّ التفاحات على الأشجار مثلما تتجمع الطيور بصورة مكثّفة على الأسلاك قبل مغادرتها. عندما تسقط التفاحة، هنا وهناك على الأرض، تحلّ لحظة من السكون. كما لو أن الصّمت يحاول الإمساك بالتفاحة.

تغدو ألوان الأوراق والثمار أكثر حيوية. كما لو أن صوتا سينبعث منها تقريبا، لو أراد أحد أن يقطعها. حبّات العنب الأزرق الغامقة تشبه

رؤوس النوتة.[1] تكمن أغنية الحاصدات[2] مركّزة في رؤوس النوتة السود لحبّات (العنب).

يتحرّك كل شيء في الخريف بصورة أقرب إلى الكلام: يبدو الصّمت نفسه متردداً بين أغاني الحاصدات.

يكون الصّمت في الشتاء مرئياً: يصبح الجليدُ الصامتُ مرئياً.

يكون الفضاء بين السماء والأرض مشغولاً بالصّمت؛ السماء والأرض هما مجرد حافّة الصّمت الجليدي. تلتقي نُدف الثلج في الهواء وتنزل معاً على الأرض التي تكون مسبقاً بيضاء في الصّمت. يلتقي الصّمت بالصّمت.

يقف الناس صامتين على جانب الطريق. تكون اللغة الإنسانية مغطّاة بثلج الصّمت. ما يتبقّى من الإنسان هو جسده واقف في الثلج مثل مَعلمِ صمتٍ. يقف الناس ساكنين ويتحرّك الصّمت بينهم.

يزامن الصّمت الزمنَ، ويحدّده. يأتي هدوء (الزمن) من الصّمت المحصور فيه. إلا أن صوت الزمن الممكن قياسه، الضربة المنتظمة للزمن، يكون مغموراً بالصّمت.

يكون الزمن متمدداً بالصّمت. لو يكون الصّمت سائداً جدّاً في الزمن، بحيث يكون الزمن ممتصّاً من قبله تماماً، حينئذ يقف الزمن ساكناً. بالتالي لا يوجد شيء هناك سوى الصّمت: صمت الأبدية.

عندما لا يكون هناك صمت أكثر متروكاً في الزمن، فسيصبح ضجيجه مسموعاً، كأنه كان حركة متدفّقة بصورة ميكانيكية. بالتالي لا يوجد هناك مزيد من الزمن، فقط زخم تدفقه المندفع إلى الأمام. يكون البشر

(1) إشارة الى العلامة الدائرية التي ترسم في رأس كل نوتة موسيقية مكتوبة.
(2) اشارة الى النساء اللاتي يحصدن في الحقل وهنّ يغنين.

والأشياء كما لو أنهم مدفوعون بواسطة حركة الزمن، مشغولون بسريانه الآلي المندفع، لم يعودوا مستقلين، بل مجرد جزء مكوّن للزمن ذاته.

يتنافس الناس، الأشياء، والزمن بعضهم مع البعض الآخر كما في سباق؛ كما لو أنهم موجودون فقط كمتنافسين في سباق - «السباق ضد الزمن» وسباق الزمن ضد الناس والأشياء.

من دون الصّمت الموجود في الزمن فلن يكون هناك نسيان أو تسامح. مثلما ينضم الزمن ذاته إلى الصّمت، فما يحدث في الزمن ينضم إلى (الصّمت) أيضاً؛ ولهذا يُقاد الإنسان من قبل الصّمت الذي يكون في الزمن، إلى النسيان والتسامح.

عندما يكون الزمن ممتصاً تماماً من قبل الصّمت، في الأبدية، فلن يتبقى هناك شيء سوى النسيان العظيم والتسامح، لأن الأبدية تكون مخترقة من قبل الصّمت، الذي حدث فيه كلّ شيء في وقت من الأوقات، ينهار ويختفي.

صحيح أن الروح تقف أعلى من الزمن وأعلى من الصّمت الذي يكون في الزمن؛ إنها الروح التي تقرّر النسيان والتسامح. لكن يكون أسهل بالنسبة للروح أن تسامح وتنسى عندما تلتقي الصّمت في الزمن: يتم تذكير الروح خلال الصّمت عن الأبدية، التي هي الصّمت العظيم والتسامح.

الطفولة، الشيخوخة والصّمت

الطفل

يشبه الطفل تلاً صغيراً من الصّمت. على هذا التل الصغير من الصّمت تظهر الكلمة فجأة. يغدو التل الصغير صغيراً تماماً عندما ينطق الطفل كلمته الأولى. إنه يتضاءل تحت ضغط الكلمة كما في السحر، وتحاول الكلمة أن تجعل نفسها تبدو مهمة.

كما لو كان الطفل يدقّ بالصوت المنبعث من فم الطفل على باب الصّمت وكان الصّمت يجيب: أنا هنا، الصّمت، مع كلمة من أجلك.

تعاني الكلمة من صعوبة الانبعاث من صمت الطفل. مثلما تقود الأمُ الطفلَ، فيبدو أن الصّمت يقود الكلمة إلى حافة فم الطفل، وتثبت بقوة هناك بواسطة الصّمت، كما لو كان على كلّ لفظ أن يفصل نفسه من الصّمت وأحداً بعد الآخر. ينبعث صمت أكثر من الصوت خلال كلمات الطفل، صمت أكثر من لغةٍ حقيقيةٍ.

لا تتدفّق الكلمات التي ينطقها الطفل بخط مستقيم، بل على شكل منحني، كما لو أنها أرادت أن تعود ثانية إلى الصّمت. أنها تقوم برحلتها البطيئة من الطفل إلى الناس الآخرين، وعندما تصل فإنها تتردّد لحظة،

لتقرّر في ما عليها أن تعود إلى الصّمت أم تبقى حيثما تكون. يتفرّس الطفل في كلمته كما لو أنه يراقب كرته، يراقب كي يرى في ما ستعود ثانية أم لا.

لا يستطيع الطفل أن يستبدل الكلمة التي ولدت بصعوبة من الصّمت بكلمة أخرى؛ لا يمكنه أن يضع الضمير بدلاً من الاسم. لأن كل كلمة تكون هناك كأنها كانت لأول مرة، وما يوجد هناك لأول مرة، ما هو جديد تماماً، ليس لديه رغبة بالطبع، أن يُعوّض عنه بشيء آخر.

لا يقول الطفل أبداً عن نفسه «أنا»، بل يقول اسمه دائماً: «أندرو يريد...». سيعتقد الطفل بأنه سيختفي لو كان عليه أن يستبدل اسمه بضمير - اسمه الذي انبعث للتو من الصّمت مع الكلمة ويكون هناك كأنه كان للمرة الأولى دائماً.

لغة الطفل شعرية، لأنها لغة بداية الأشياء ولهذا فإنها أصلية ومباشرة كما هي لغة الشعراء أصلية ومباشرة. «تكسّر القمر»، يقول الطفل عن القمر الجديد، «علينا أن نأخذه إلى أمه كي تصلّحه».

لغة الطفل ملحّنة. تختبئ الكلمات وتحمي نفسها في اللحن - الكلمات التي انبعثت من الصّمت بحياء. إنها تختفي تقريباً في الصّمت ثانية. يوجد هناك اتساق أصوات أكثر مما محتوى في كلمات الطفل.

كما لو كان الصّمت يتراكم في داخل الطفل كذخر من أجل سن البلوغ، من أجل العالم الصاخب في سنوات الطفل اللاحقة كراشد. لدى الراشد، الذي حفظ في نفسه ليس شيئاً من لغة الطفل فقط، بل وأيضاً شيئاً من صمتها، القوة كذلك لجعل الآخرين سعداء.

نُقلت لغة الطفل صامتةً إلى الصوت. لغة الراشد هي صوت يبحث عن صمت.

الأطفال - التلال الصغيرة من الصّمت - منتشرين في كل مكان في

عالم الكلمات، مذكرين البشر بأصل الكلام. إنهم كمؤامرة ضد عالم كلمات اليوم الحيوي جدّاً. أحياناً كما لو أنهم لم يكونوا فقط تذكيراً إلى من أين انبعثت الكلمة بل وأيضاً تحذيراً، مثلاً، إلى أين ستعود: تعود إلى الصّمت. لكن أيّ أمر يمكن أن يحدث إلى كلمة فاسدة أفضل مما أن تُعاد إلى تلك التلال الصغيرة من الصّمت لتدفن فيها؟ عندئذ ستكون هناك تلال صمت صغيرة فقط على الأرض، وستحاول الكلمة أن تدفن نفسها عميقاً في التلال بحيث قد يمكن أن تولد الكلمة الاولى، الأصلية، من أعماق الصّمت، ثانية.

العجائز

تنبعث الكلمة ببطء من الطفل في الصّمت، وبطيئة هي أيضاً كلمات الرجال والنساء العجائز، كأنها تعود إلى الصّمت الذي يكون نهاية الحياة. تسقط الكلمة من فم العجوز مثل لازمة[1] تتطوّر ببطء كبير في الصّمت أكثر مما بالنسبة للآخرين في الظاهر، لأن العجائز يتحدثون إلى صمتهم أكثر مما يتحدثون إلى أناس آخرين.

إنهم ينقلون كلماتهم إلى هنا وهناك بين شفاههم مثل كريات ثقيلة. كما لو أنهم يعيدونها بسرّية إلى الصّمت، كما لو كان الرجال والنساء العجائز يحاولون قبل أن يغادروا الأرض أنفسهم، أن يعيدوا إلى الصّمت الكلمات التي استقبلوها من الصّمت من دون ملاحظة تقريباً عندما كانوا أطفالاً.

رجل عجوز وامرأة عجوز يجلسان أحدهما إلى جانب الآخر في صمت خارج دارهم في المساء...[2]، هما وكل كلمة تنبعث منهما

(1) اللازمة هي المفردة أو العبارة التي تتكرر في نهاية المقطع الغنائي
(2) لا يوجد الخرم المنقط في السطر في النص الألماني الأصلي

وكل فعل تتمخض عنه الكلمة يكونون في الصّمت. حتى إنهما لم يعودا ينصتان إلى ما يقوله الصّمت، لأنّهما أصبحا مسبقاً جزءاً من الصّمت. مثلما قادا المواشي إلى الماء، فهما يقودان الآن المساء إلى مكان الصّمت المبلل وينتظران حتى يكون راضياً. من ثم ينهضان ببطء ويقودانه عائدَين به إلى ضوء البيت الدافئ.

لدى العجائز حتى قبل انتقالهم إلى صمت الموت، شيئاً من الصّمت في داخلهم؛ حركتهم بطيئة، كما لو أنهم كانوا يحاولون تشويش الصّمت في نهاية الرحلة. ما زالوا يمشون بتردّد بمساعدة عصيهم، كأنهم على جسر من دون سياج، ولم يعد هناك على جانبيه لغة سوى الموت، ينهض لاستقبالهم. إنهم يذهبون لاستقبال صمت الموت مع صمتهم في داخلهم. وتشبه الكلمة الأخيرة للعجائز سفينة تحملهم من صمت الحياة إلى صمت الموت.

الصّمت والفلاّح

1

القرية... تنهض جدران البيوت من الأرض بحياء، كأنها تنهض أولا تدريجيا، وببطء أفقياً، من ثم إلى الأعلى قليلاً، بتأنٍ، في الهواءِ، كما لو أنها خائفة من اللقاء بشيء لا ينبغي لمسه.

هناك تتمدّد الدروب في القرية كما لو أنها ألقيت مثل أحذية قديمة. إنها قصيرة، وتختفي بعد مسافة قصيرة وتتوقف فجأة. أنها تشبه بقايا طريق كبير لم يعد موجوداً هناك. وحده الصّمت لا يزال يتفحّصها، وبضعة أفراد يتعقّبون خلفه في صحوة الصّمت بصمتٍ.

لكن من النوافذ الصغيرة للبيوت يراقب الصمتُ نفسه ماضيا على الدرب تحت.

يتحرّك الناس بطيئين، كما لو أنهم كانوا يحاولون التحرّك في إيقاع الصّمت البطيء ذاته.

يقف شخصان ويتجاذبان الحديث في الشارع عند الصباح. ينظران حولهما بروية، كما لو أنهما كانا لا يزالان مراقبين من قبل صمت الليل.

تمر الكلمات بينهما جيئة وذهاباً بخلسة، كما لو أنهما يبحثان في ما إذا لا يزال بإمكانهما التكلّم بعد صمت الليل. تحادثا بالفعل لوقت طويل، لكن كما لو كان الصّمت، مع ذلك، يصبح بمرور الوقت أكثر كثافة.

2

تنسلّ في الربيع أولى أزهار الربيع والصفصاف بشكل خفي خلال شق في الصّمت، وعندها تكون كل (أزهار) الزعفران والخزامى هناك. إنها تطلع بمباغتة كبيرة بحيث يستطيع المرء أن يسمعها تقريباً، لكن يتغيّر الصوت إلى لون: إلى ألوان الخزامى الحُمر والصُفر الزاهية.

تبدأ الطيور بالغناء. كما لو أن جنح الطير مسّ برفق صمت الهواء: هكذا يكون أصل الأغنية.

تكون الازهار في حدائق الفلّاحين مكتنزة مثل ثمرة، مثل معالم ملونة، علامات على طريق الصّمت.

تغوص القرية في نهار الصيف، أحياناً، في الصّمت، كما لو أنها تغيب تحت الأرض. تكون حيطان البيوت آخر البقايا فوق الأرض، ويقف برج الكنيسة عالياً كصرخة من أجل مساعدة، كصرخة تحوّلت إلى صخرة في الصّمت.

الأزهار في نهار صيف كهذا تكون مختلفة: الأزهار الداكنة تشبه طحلباً في قاع بحر الصّمت، والأزهار الزاهية تشبه صور النجوم المعكوسة على أرضية الصّمت، أو تشبه سمكة متلألئة في ماء الصّمت.

3

المواشي في الحقول: إنها حيوانات الصّمت. السطح العريض لظهورها... كما لو أنها تحمل الصّمت هناك. عيونها مثل حصى بُنيّة على طريق الصّمت.

بقرتان تتحركان في حقل وبجانبهما رجل... كما لو كان الرجل يصب الصّمت على الحقول من على ظهور الحيوانات؛ كما لو كان يحرث بالصّمت.

خوار البقرة يشبه شقّاً في الصّمت، كصمت يمزق نفسه إلى قطع.

إيماءات الرجال الرحبة في الحقل - إنّهم يعيدون بذر الصّمت الذي تم تحطيمه في المدن.

4

حياة الفلاح هي حياة في الصّمت. عادت الكلمات إلى حركات الناس الصامتة. تشبه حركات الفلاح كلمة طويلة ممدودة فقدت صوتها في رحلة طويلة.

يعيد الفلاح، في كلّ نوع من العمل، الحركات نفسها في كل وقت يحصد ويبذر ويحلب. تكون الحركات التي ينجزها صورة ملموسة كالبيت الذي يعيش فيه ومثل الأشجار في الحقل. كل أصوات العمل يمتصّها نسق ثابت لنفس الحركات المتكررة، ويكون عمل الفلاح محاطاً بالصّمت. لا تكون طريقة العمل اليومي في أيّ حرفة أخرى جليّة بوضوح كبير وملموسة كما في حرفة الفلاح.

يتحرّك الفلاح على طول خلف أفراسه ومحراثه... تقع كل حقول الأرض تحت هذا المحراث، تحت خطى الحصان والفلاح. تكون حركات الفلاح، الحصان والمحراث مستقلة عن اللغة، كما لو أنها لم تنبعث من اللغة أبداً؛ كأن الفلاح، قبل أن يغادر البيت قاصداً الحقولَ، لم يقل أبداً: أنا ذاهب الآن إلى الحقل كي أحرث؛- في الحقيقة، كما لو أنّ أحداً لم يتحادث عن الحقول والأفراس والمحراث، لأنّ حركات الفلاح أصبحت كفلكِ النجمة الصامت.

حركات الفلاح بطيئة، بحيث تبدو كما لو كانت النجوم تتحرّك معه، وكما لو كان الفلاح والنجوم يقطعان دروب صمت أحدهما الآخر.

تسقط الحبوب الكثيرة من يد الفلاح على الأرض المفتوحة كحزمة نجوم في المجرّة. كلاهما الحبوب والنجوم تتلألأن خلال الضباب والرذاذ.

حياة الفلاح مثل كوكبة صمت في قبّة السماء الإنسانية.

لأنّ كلّ حياة الفلاح أصبحت أسلوباً منظماً، انسحبت من دائرة بقية الحياة الإنسانية وارتبطت بأساليب الطبيعة وأساليب الحياة الداخلية، أكثر من أولئك البشر الذين هم خارج عالم الصّمت وعالم النمطية.

عندما يتحرّك الفلاح أحياناً مع المحراث والفأس على السطح الرحب للحقل، مقترباً بصورة أقرب إلى حافة الأفق حيث تلمس السماء الأرض، فكما لو أن قبّة السماء سترفع في اللحظة القادمة الفلاح، المحراث، والثور إلى داخلها، بحيث يتمكّن من حرث أديم السماء باعتبارها أحد الكواكب.

5

الفلاح هو حصيلة الأجيال السابقة واللاحقة، بحيث تكون أجيال الماضي بصمتها معه، وأجيال المستقبل المقبلة بصمتها كذلك. لا يكون الفرد في كل حركة أخرى للحياة مجرّد متطفّل فحسب أكثر من الفلاح، بل وأيضاً متورط في الحاضر بكثافة، ومفصول عن الماضي والمستقبل ومن صمتهما.

عندما يقوم الفلاحون بضجيج كبير في مناسباتهم الاحتفالية، فإنّهم كما لو كانوا يحاولون الإفلات من الصّمت الذي يمكن أن يقوموا به بنجاح عن طريق القوة فقط.

انظر إلى حركات الفلاحين في اللوحات الألمانية القديمة. حركات وجوههم وأعضائهم تشبه حركات البشر الذين انبعثوا للتو من الصّمت، نافضين عنهم السلام والصّمت بعنف، ويحاولون كلّ أنواع الحركة على الفور، كما لو أنّهم أرادوا معرفة كل الأشياء التي يمكن للمرء أن يقوم بها بالوجه والأعضاء عند البكاء والضحك، الأشياء التي نسوها في الصّمت.

6

يجلس فلاح وزوجته في المساء أمام بيتهما، كلاهما في صمت طويل... فجأة تسقط كلمة من فمه أو فمها في الصّمت. إلاّ أن ذلك لم يكن مقاطعة للصمت: كما لو كانت الكلمة تطرق فحسب لترى إن كان الصّمت لا يزال هناك - من ثم تتلاشى ثانية. أو مثلما تصدر الكلمة الاخيرة من إنسان بحيث يكون للصمت سطوة كاملة، الكلمة الأخيرة التي تجري خلف كلّ (الكلمات) الاخرى اللواتي كنّ سابقا وأختفين، تشتّ[1] وتنتسبُ إلى الصّمت أكثر مما إلى اللغة.

صمت الفلاح هذا لا يعني فقدان اللغة. على العكس: في هذه الحالة من الصّمت يعود الإنسان إلى بداية الزمن، عندما كان ينتظر استقبال الكلمة من الصّمت. كما لو أنّه لم يَحُز أبداً على الكلمة بعدُ؛ كما لو أنها ستمنح الآن له لأول مرة. إنّه ليس الإنسان بل الصّمت الذي تظهر منه الكلمة الأولى ثانية الآن.

الأفراد يستشرفون الأشياء من مستوى الارض ذلك يكون شبيها بالكلمة التي تثبُ من سطح الصمت. لكن الفلاح وحده الذي لا يزال لديه هذه الأرض المستوية من الصّمت في داخله اليوم.

---

(1) بمعنى افترقت واختلفت.

انتصب الإنسان من سطح الارض: على هذا النحو انبعثت الكلمة من سطح الصمت. الا أن الفلاح وحده الذي لا يزال لديه هذه الارض المستوية من الصمت في داخله اليوم. نهوض الفلاح من سطح الحقل، يشابه سطح الصمت الذي تصعد منه كلمة الانسان.

البشر والأشياء في الصّمت

1

«كنّا صامتين. صديقان سعيدان، يتحابّان بالقدر الكافي، اللذان يريدان أن أرضاء احدهما الآخر بما فيه الكفاية، وأن يعرف أحدهما الآخر بما فيه الكفاية، اللذان يتفاهمان بما فيه الكفاية، اللذان تجمعهما قرابة كافية، ويفكران ويشعران معاً كفاية، بل أكثر مما ينبغي ما بداخل بعضهما، كل واحد على حدة، هما عينهما بالقدر الكافي، كل واحد بجانب الآخر، في السير الطويل، الطويل في الذهاب، في المشي بصمتٍ على طولِ الطرق الصامتة. سعيدان هما الصديقان، اللذان يتحابان بالقدر الذي يجعلهما (يعرفان) أن يصمتا معاً. في بلد يعرف كيف يصمت. كنا نصعد. كنا صامتين، منذ وقت طويل كنا صامتين».

(شَارْلْ پِّيـگِي)[1]

(1) النص في الأصل بالفرنسية وساعد الصديق الشاعر عزالدين بوركة بترجمته مشكوراً.

إنها نعمة أن تملك فهماً مشتركاً ليس حول معنى الأشياء فقط بل وأيضاً حول معنى الصّمت. أن لا تتحدّث لا يعني ببساطة الشيء نفسه أن تكون صامتاً. ينبغي أن يكون الصّمت حاضراً في داخل الإنسان كواقع أوّلي بذاته، وليس مجرد نقيض للكلام. يضيف هذا العيش في الصّمت الأولي حياةً أخرى إلى الإنسان، الذي هو إنسان فقط من خلال الكلمة: إنه يضيف الحياة في الصّمت. إنه يوجهه إلى ما بعد الحياة التي تكون في الكلمة إلى حياة ما بعد الكلمة، ويوجّهه إلى ما بعد نفسه.

«كثيراً ما قال بلاتون كراتاييف على عكس ما قاله سابقاً تماماً، ومع ذلك كان كلا القولين صحيحاً... وعندما يُبَاغت بيير أحياناً بمعنى كلماته العميقة فإنه يسأل أفلاطون ليعيد ما قاله. إلا أن بلاتون كان عاجزاً عن تذكّر الكلمات التي نطقها قبل دقيقة فقط... لم يفهم بلاتون ولم يستطع ان يفهم معنى الكلمات المنفردة التي انتزعت من سياقها. كانت كل كلمة وفعل من بلاتون تعبيراً عن نشاط لم يفهمه هو نفسه بعدُ، الذي شكّل كلّ حياته كانت حياة بلاتون بلا معنى كحياة فردية واحدة وحصلت على معناها فقط كجزء من كامل الحياة التي تركها تتدفق حوله بلا انقطاع. تدفقت كلماته وأفعاله منه بصورة مباشرة كالأريج من زهرة».

(تولستوي: الحرب والسلام)

تلك هي صورة إنسان في داخل مثل هذا الإطار، نظام ثابت بحيث إن الكلمة لم تَعُد تُستخدم أكثر لإطلاق عمل. تتابع الأعمال الواحد الآخر بشكل خفي، غير ملحوظ من قبل أي شخص.

لن تكون هناك حاجة إلى الكلمات مع بلاتون تولستوي هذا، ولهذا فللكلمة حريتها الخاصّة. إنّها لم تعد مقيّدة مباشرة بالموضوع ولا مع

الكلمات الأخرى، لكنّها مع ذلك لا تكون مطلقة العنان تماماً: إنّها تحوم لحسن الحظ فوق الأشياء والأفعال. لا تكون الكلمات مرتبطة ومتماسكة بواسطة منطق خارجي منهجي، بل بواسطة مباركة هذه الحرية الخاصّة بها. ولهذا «فلا توجد هناك تناقضات هنا»، والإنسان «يمكنه أن يقول عكس ما قاله سابقاً تماماً ومع ذلك كان كلاهما صحيحاً».

لا تشير الكلمات إلى نفسها ولا إلى الأشياء والأعمال التي تصفها، بل إلى نعيم الحرية الداخلية. مثل هذا الإنسان يمكنه أن يتكلّم ومع ذلك يكون صامتاً؛ ويكون صامتاً ومع ذلك يتكلّم. في الحقيقة جُعل الصّمت مسموعاً عن طريق الكلمة، وتصبح السعادة، التي تكون عادةً مجرّد إحساسٍ، مرئيةً كشيء ملموسٍ، مرئي في شفافيته.

2

لا تزال مدن الماضي القديمة الصغيرة التي تبدو واقعة في فتحةِ صمتٍ، مطوّقة بالصّمت عند أطرافها. كما لو أن الغطاء تمت إزالته عن الصّمت عند مكان واحد؛ كما لو كان الصّمت ذاته يتطلع إلى الأسفل نحو المدينة الصغيرة.

لا يزال هناك نوع من الخدر في البيوت، صدمة يسببها الاندفاع المباغت الشامل للمدينة الصغيرة من سطح الصّمت.

يكون كلّ شيء متلاصقاً في المدينة الصغيرة. تكون كلّ البيوت، الأشجار، الساحات محشورة، كما لو أنّها جاهزة لإجلاء فوري. كما لو أنّها محتاجة إلى هزّة صغيرة فقط وسيختفي كلّ شيء ثانية خلال فتحة الصّمت.

تشبه الشوارع جسوراً فوق الصّمت. ويمشي الناس جيئة وذهاباً ببطء كما لو أنهم كانوا خائفين من أن الأرض لم تكن ثابتة بصورة كافية كي تتحمّلهم.

الكاتدرائية وحدها مصانة، مثل فتحة صلدة لدعامة يتحرّك تحتها الصّمت إلى صمت لا يزال أعمق تحت.

النقيض إلى ذلك هو مدن العالم المعاصر الكبيرة. كما لو أن الصّمت انفجر فجأة ورمى كلّ شيء في فوضى وإرباك. دُمرت المدينة بانفجار الصّمت. إنها تقبع هناك مثلما خُلِّفت بعد الانفجار، مثل بقايا الصّمت.

لا تبدو اللغة التي يتكلّمها الناس في المدن تنتمي إليهم أكثر. إنها مجرّد جزء من صخب عام، كما لو أن الكلمات لم تعد مصاغة بواسطة شفاه بشرية، بل كانت محض صرخة وزعيق قادم من ميكانيكية المدينة.

يقال اليوم إن الناس تحتاج فقط الذهاب إلى الريف لتنال «هدوء الطبيعة» والصّمت. لكنهم لن يلتقوا الصّمت هناك؛ على العكس من ذلك، فإنهم سيحملون صخب المدن الكبيرة وضجيج أرواحهم إلى الريف معهم.

ذلك هو خطر حركة «العودة إلى الريف»: يتم إطلاق الصخب الذي يكون في كل الأحوال متمركزاً في المدن الكبيرة، المحصور كما في سجن، إلى الريف. لجعل المدن الكبيرة لا مركزية يعني جعل الضجيج لا مركزياً، وتوزيعه على كل الريف.

3

أحياناً عندما يقف جدار البيت في ضوء القمر، كما لو ان نور القمر استولى على الجدار بالنيابة عن الصّمت. يمكن للمرء أن يحس اقتراب الصّمت من حرارة الظهر. يحطّ النور بثبات على الجدار كعلامة على أن الجدار يعود إلى الصّمت.

الباب الموجود في الدار مغلق؛ والنوافذ مغطاة بالستائر؛ والناس الموجودون في داخل البيوت هادئون جدّاً، كما لو أنهم يخفضون

رؤوسهم باقتراب الصّمت. يبدو الجدار الداخلي يتمدّد خلال الصّمت ويدفعه إلى الداخل.

من ثم تضيء أغنية على الحائط من الداخل. النوتات تشبه كرات لامعة ملقاة على الحائط. وكما لو أن الصّمت ينبعث الآن من الجدار ويتسلّق إلى الأعلى نحو السماء، وتشبه النوافذ في الجدار درجات السلم موجهة الصّمت والأغنية أيضاً إلى السماء فوق.

4

يوجد هناك أحياناً مقعد على جانب الطريق، تجلس عليه قطة. ولا يوجد شيء وراء الشارع المرصوف بالحصى سوى مرج يخرج منه منحدر شديد الانحدار نحو الوادي. يبدو المقعد، القطة، الشارع، المرج محومة بين السماء والأرض عند أسفل المنحدر. وهنا، هنا في تلك الأشياء القليلة يريح الصّمت نفسه. كما لو أن الصّمت هرب من بقية العالم وأخذ تلك الأشياء القليلة معه إلى هنا ليأخذ استراحته فيها.

القطة بلا حركة كما لو أنها كانت سابقاً إحدى تلك الحيوانات الحجرية التي تنتظر بصورة أبدية على جدران الكاتدرائية: حيوانات الصّمت، قادرة على مراقبة الصّمت ذاته.

تلك الأشياء القليلة - الحيوان، المقعد في الشمس، الشارع المرصوف، الحقل - نُقلت كلها من روتين العالم بواسطة الصّمت. الحيوان، المقعد، والأرض عادت إلى البداية حيث كان الصّمت فقط، قبل خلق اللغة. في البداية كانت على هذا النحو كما هي الآن، وعلى هذا النحو ستنقل حتى نهاية العالم.

سيحب الإنسان الذي ينظر إليها أن يُضيف صمتَه إلى أشياء الصّمت تلك، بحيث يمكنه أن يرحل معها ثانية، منذ بداية العالم حتى نهايتها.

إلا أنه من جهة ثانية يعبّر عما يراه أمامه بالكلمة، وبالكلمة يرى الصّمت حتى بوضوح أكبر مما بعينه.

5

جدار كبير من الحجارة، جدار المسرح الخارجي الكبير في أورنج في البروفانس: إنه الصّمت ذاته.

إنه ليس الصّمت الذي ينبعث من الكلمة من خلال سحقها؛ لم يصغ الصّمت هنا ببناء حجري. إنه يوجد هنا منذ البدء في الحجر، في الحجر مثلما تكون الآلهة اليونانية في المرمر، حيثما لا تكون كما لو أن الإنسان شكّلها من المرمر بل كما لو أنها نفسها قد ظهرت في المرمر كما هي بالضبط؛ كما لو أنها رحلت لفترة طويلة خلال كتل المرمر حتى جاءت إلى نهاية الجبل المرمري. تخرج الآلهة من المرمر كما من بوابة، من آخر بوابة للجبل المرمري.

وبالضبط تماماً هو الصّمت في هذا الجدار. يبدو أنه سافر خلال كلّ أحجار الأرض، حتى وصل إلى جدار الحجر الأخير هنا، وهو ينتظر الآن. خرجت البوابات المدوّرة مسبقاً من الجدار في الأسفل وفي الجوانب، كما لو أنّ كلّ شيء تم إعداده من أجل الصّمت لينتقل من هنا إلى العالم.

لو كان الجدار مجرّد حجرة منفردة واحدة، فستكون مثل نصب تذكاري للصمت - مجرّد للتذكار. لكن كما هو معمول من أحجار صغيرة كثيرة، تشبه تلك الأحجار، حينما تنبعث من الأرض وتتمدّد بكل طولها وعرضها، أعضاءَ الصّمت. الصّمت حيّ؛ إنه ليس نصباً تذكارياً صرفاً. الأحجار العديدة تشبه لحم الصّمت الحجري. يمكن للمرء أن يحس نسيج الصّمت في هذا الجدار الضخم من الحجر.

كما لو يمكن تجهيز كل الأرض بالصّمت من هذا المكان؛ كما لو أنّ كلّ عالم الصّمت يمكن أن ينتصب، في الواقع، من هذا المكان: يتكوّن العمل الأساسي من الصّمت، تنقل الأنهار الصّمت بدلاً من المياه بين ضفافها، وعلى جوانبها تقف الأشجار محشورة معاً كالأحجار في الجدار هنا.

تحمل الأشجار شعاعاً ساطعاً على أغصانها بين أوراقها، والأشعة الساطعة بين أوراقها تشبه ثمار الصّمت.

الطبيعة والصّمت

1

صمت الطبيعة هو صمت متناقض من وجهة نظر انسانية. إنه صمت مبارك لأنه يمنح الإنسان شعوراً فطريّاً بالصّمت العظيم الذي كان قبل الكلمة والذي انبعث منها كل شيء. كما أنه بالوقت نفسه طاغٍ لإنه يضع الإنسان ثانية في وضع الذي هو كان فيه قبل خلق اللغة؛ قبلَ خلق الإنسان. إنه يشبه تهديداً بأن الكلمة قد تؤخذ منه ثانية إلى ذلك الصّمت الأصلي.

لو كان الإنسان لا شيء سوى جزء من الطبيعة، فإنّه لن يكون أبداً وحيداً. سيكون دائماً مرتبطاً بكل شيء من خلال الصّمت - لكن في علاقةٍ ستتعلّق فقط بالجانب الطبيعي من سجيّته. الإنسان، مع ذلك، ليس جزءاً فحسب من الطبيعة، بل أيضاً روح، وتكون الروح منعزلة عندما يكون الإنسان مرتبطاً بالأشياء خلال الصّمت فقط، لأن الروح تحتاج إلى أن تكون مرتبطة بالأشياء عبر الكلمة. وعليه تكفّ الروح عن أن تكون منعزلة بجوار الطبيعة الصامتة: أنها تتكلم ومع ذلك تكون في الصّمت. في الواقع أنها تستطيع أن تخلق الصّمت خلال الكلمة.

ذلك دليل على الأصل الإلهي للكلمة التي يمكن أن ينبعث منها الآخر حقاً، الذي لا يكون مكبوتاً في المعطى[1] الخارجي للكلمة: الصّمت المباغت.

العلاقة مع الأشياء خلال الصّمت هي علاقة دائمة، لكن الصلة عبر الكلمة تكون مرتبطة باللحظة. لكنها لحظة الحقيقة التي تظهر في الكلمة، وتلك هي لحظة الخلود.

قلنا إن صمت الطبيعة دائم؛ إنه الهواء الذي تتنفس فيه الطبيعة. حركات الطبيعة هي حركات الصّمت. تبدّل الفصول هو إيقاع الصّمت؛ تكون طريقة تغيّر الفصول محجوبة بالصّمت.

صمت الطبيعة هو الحقيقة الأساسية. تخدم أشياء الطبيعة لجعل الصّمت مرئياً بوضوح فحسب. أشياء الصّمت هي صور للصمت، لا تظهر نفسها مثلما الصّمت إلى حد كبير، كالعلامات التي تشير إلى المكان حيث يكون الصّمت.

2

كان الصّمت هناك أوّلاً قبل الأشياء. كما لو أن الغابة نمت ببطء بعده: تشبه أغصان الأشجار خطوطاً سوداً التي تبعت حركات الصّمت؛ الأوراق تغطّي الأغصان بكثافة كما لو أن الصّمت أراد أن يخفي نفسه.

يغنّي طير في الغابة. لم يكن ذلك صوتاً موجهاً ضد الصّمت؛ إنها لمحة لامعة تهبط من عين الصّمت ذاته على الغابة.

تنمو الغابة باستمرار بصورة أكبر، لأن الصّمت ينمو بصورة أعظم باستمرار. ينبغي أن تسقط الأوراق بكثافة أكثر، وينبغي أن تغني الطيور

---

(1) هنا بمعنى الأمر الثابت والمحدد أو الشكل الخارجي للكلمة.

بصوت أعلى. لكن عين الصّمت البرّاقة لم تعد تستطيع حالياً اختراق الغابة.

متن الجبل الفسيح... يعرض نفسه برفق إلى العين الإنسانية وينتظر بصبر الإنسان ليصرخ. بعدها تقبض الغابة على الكلمة وتعيدها إلى الإنسان في الصدى، لأنها تنتسب إلى الإنسان وليس إلى الغابة.

يصبح الصّمت بعد الصدى، مع ذلك، أعمق، لكن حيثما يتحرّك الصدى بامتداد الجبل، يبدو أخدود الغابة مهيباً.

الأزهار، خارج الغابة، تشبه الصّمت الذي ذاب وتلألأ في شعاع الشمس.

بجانب الغابة البحيرةُ: مثل ختم طُبع على وجه الأرض بواسطة الصّمت. أو قد تبدو فجأة مثل كساء أزرق رمادي مثبت على الأرض ليمنع الصّمت من أن ينفذ بصورة كاملة ويغطي كل شيء.

ثمت سفينتان تبحران، ببطء، بحذر وحرص، عند نهايتي البحيرة.

شجرة عملاقة تقف قرب البحيرة. جذعها الثقيل مدفوعاً في الأرض مثل وتد ضخم مغروس ضد الصّمت. لكنّ الصّمت زحف إلى الأعلى على امتداد الجذع وقمة الشجرة انبسطت لتخلق مكاناً للصمت.

أشياء الطبيعة مليئة بالصّمت. إنها تشبه احتياطات ضخمة من الصّمت.

الغابة تشبه خزان صمت يرشح منها الصّمت في تيار رفيع، بطيء ويملأ الهواء بالسطوع.

الجبل، البحيرة، الحقول، السماء - كلها تبدو أن تكون في انتظار علامة لتخلي صمتها إلى أشياء الضجيج في مدن البشر.

يطير طير من أحد جوانب الوادي إلى آخر، كما لو أنّ الصّمت الذي

أُلقي خلال الفضاء عبر جسد الطير كأنه ألقي خلال كُرة. صوت الطير يشبه صوت كرة تشق الهواء، حتى إنّ الصّمت يكون مسموعاً بصوت أعلى بعد كل نغمة يغرّدها الطير.

في الهدوء المرتقب، يزداد الصّمت في الأشياء. تبدو الأشياء تغطس في الصّمت، لتكون مجرّد حافة الصّمت الخارجية. ذلك ما حادث للقرى القديمة على سفوح التلال في تسينو. غطست في الصّمت، مثل سفن تستقر على سرير الصّمت البحري، والغيوم فوق تشبه أسماكاً ملوّنة، التي اصطدمت في يوم من الأيام بحطام سفينة عملاقة في قاع البحر، تتقيها بذكاء الآن.

الناس الذين يمشون ببطء خلال تلك القرى يشبهون غوّاصين يسحبون إلى الأعلى كنوز الصّمت الضائعة من سرير البحر.

بعض الذين كانوا يتكلّمون عندما دخلوا تلك القرى غادروها مملوئين بالصّمت.

3

تعود الأشياء في بداية الربيع إلى الصّمت وترجع إلى نفسها أكثر.

في الربيع، عندما تجلس الأوراق بحياء على الغصون مثل فراشات، وتتحرّك السماء الزرقاء بين الأغصان، بحيث إن الأوراق تهتز في الهواء أكثر مما على الأغصان، تنتمي الأشجار إلى السماء وإلى نفسها أكثر مما تنتمي إلى الصّمت.

يقفز غزال بين شجرتين والبقعة اللامعة على فرائه مثل صوت يسافر خلال الصّمت. من ثم يظهر القمر على حين غرّة، وهلال القمر يشبه صدعاً مفتوحاً يرشح الصّمت خلاله إلى أسفل الغابة ويغطي كل شيء.

في حرارة ظهيرة الصيف يسطو الصّمت على المكان تماماً. يبدو الزمن نفسه يقف ساكناً، مشلولاً بهذه الصدمة المباغتة.

امتدت قبّة السماء عالياً، والسماء مثل الحافّة العليا للصمت.

الجبل، الأشجار، والبيوت المنتشرة تشبه آخر الأشياء المتبقية بعد أن تم امتصاص كلّ شيء آخر تماماً من قبل صمت منتصف النهار. يبدو الصّمت هادئاً، كما لو أنه كان متخثراً؛ وكأنما حتى تلك الأشياء الباقية الأخيرة ستختفي حالما يتحرك الصّمت.

طيرٌ يطير ببطء نحو السماء، وحركاته مثل سُحب سود تحافظ على الصّمت محصوراً في داخلها. كما لو سينفتح الصّمت، بطريقة أخرى، في اللحظة القادمة ويسحب كل شيء إلى داخله.

ليس الظلام بل النور ينتمي إلى الصّمت. ليس ذلك واضحاً أبداً مثلما هو في ظهيرة صيفية حين يكون الصّمت محوّلاً تماماً إلى نور.

يكون الصّمت كما كان مكشوفاً، ويظهر النور كأنه باطن الصّمت.

يكون الصّمت في تلك الظهاري الصيفية مكشوفاً تماماً، ويحط النور في داخله مكشوفاً للعين. لا شيء يتحرّك، لا شيء يجرؤ على الحركة.

يظهر النورُ إلى حد كبير جوهرَ الصّمت بحيث تبدو الكلمة غير ضرورية تماماً. يكون النور دفعة واحدة تحقيقاً للصمت.

> «قد ينبعث النور الباطني، على الأرجح، بعض الأحيان منّا، بحيث إننا لا نحتاج إلى أيّ نور آخر».
>
> **(غوته)**

ينتقل الصّمت في الليل بصورة أقرب إلى الأرض. تكون الأرض مليئة بالصّمت الذي يبدو مخترقاً حتى سطح التربة ذاتها. تكون كلمات النهار منحلّة في صمت الليل.

يبدأ طير الغناء فجأة في الليل. تشبه الأغنية بقية أصوات خلّفها النهار، حيث تصبح خائفة، تعانق بعضها البعض الآخر في أغنية الطير وتجعل الأغنية مكان اختفاء.

يسافر قارب فوق البحيرة وضربة المجاديف تشبه دقّات على حائط الصّمت.

تتمدّد الأشجار عالياً في الليل كما لو أنها كانت تحمل معها شيئاً ما على امتداد جذوعها وتقوم بتسليمها إلى الصّمت. تكون جذوع الأشجار في الصباح التالي حتى أطول مما في المساء السابق.

تقف الأشياء في الليل غريبة على نفسها وغريبة فجأة على المكان حيث تكون، كما لو أنها لم تكن هنا في النهار، بل وضِعت في الليل بواسطة الصّمت من دون أن تلاحظه بنفسها. يبدو أنها سافرت على الصّمت بسريّة، كأنما على سفينة: كما جُلب أوديسا إلى إيثاكا ووضع على الشاطئ والكنوز مسجّاة إلى جانبه، كذلك جُلبت الأشياء طوال الليل بصمتٍ.

4

بعض الأحيان كما لو كان صمت الطبيعة في انتفاضة؛ كما لو أنّه أراد أن يغزو كلمة الإنسان.

تهدر الريح، تندفع إلى الأمام بينما هي تهدر، كما لو أنها كانت تبحث عن الكلمة وأرادت أن تبعد الكلمة من فم الإنسان بينما هو يتكلم: الكلمة اختفت في هدير الريح.

حين تهدر الريح، تكون الطبيعة خائفة، خشية أن يهجرها الصّمت ويحتل مكانها شيء آخر.

اجتمع الصّمت بكثافة في العاصفة، لكنه اندفع في البرق، متوهجاً من دون رعد خلال الغابة.

يوجد هناك خوف في انحناءة الأشجار. إنه خوف المخلوق الذي واجه تغييراً وتحولاً.

لكن فجأة يكون كلّ شيء ساكناً. فقد تبعثر كلّ صوت في غضب الريح.

البحر يصخبُ. وكما لو أنه أراد تمزيق نفسه علنا؛ كما لو أنّه أراد أن يكشف بالأمواج العالية نفسه.

لكنه يغوص في نفسه ثانية كما لو أنه وجد في الأعماق مادة[1] بحثه. ويكون العمق مغطّى فجأة بهدوئه ثانية.

تنزل خيوط القمر في الليل إلى أعماق البحر مثل شباك. والآن حين يرتد البحر خلال الصّمت الذي يتمدّد عليه، إلى داخل نفسه، كما لو أنّ كلّ الأصوات البشرية قد غاصت في البحر والإنسان يصرخ لنفسه في خوف.

نار... عندما تتوقّف النار لحظة في فرقعة النار وتعود بعنف مفاجئ إلى الأرض، فكما لو أنّ النار أرادت أن تجلب شيئاً، ولذلك يتوقّف اللهيب للحظة، لكنه يرتفع بعدها عالياً ومع ذلك بعنف أكبر ويأس متفاقم باستمرار.

5

عندما يكون الصّمت كثيفا جدّاً بحيث تبدو الأشياء في الطبيعة مجرد تكثيفات صمت أكثر شدة، فحينها يبدو كما لو أن الإنسان يكفّ أيضاً عن الحصول على الكلمة، وتكون الكلمة مجرد شق في الصّمت.

---

(1) يمكن ترجمتها أيضاً إلى «موضوع، هدف».

«هل يوجد بلد آخر في العالم يكون فيه الصّمت مكتملاً تماماً؟ هنا في أرض الإسكيمو لا توجد هناك ريح بين الأشجار، لأنه لا توجد هناك أوراق. ولا طيور تغني. وليس هناك صخب لماء يجري. ولا حيوانات خائفة تهرب في الظلام. ليس هناك حجارة تنحل تحت قدم بشرية وتسقط إلى أسفل ضفة نهر، لأنّ كلّ تلك الأحجار سوّرت بالجليد ودفنت تحت الثلج. ومع ذلك فلم تمت هذه الكلمة بعد: أن تكون المخلوقات التي تسكن في هذه العزلة صامتة ومخفية فحسب. هذا السكون الذي كان معزولاً جدّاً، الذي هدّأني وحسّن من أعصابي المرهقة، بدأ تدريجياً يثقلني مثل ثقل رصاصي. انسحب لهيب الحياة في داخلنا أبعد وأبعد إلى مكان خفي سرّي، وأصبحت خفقات قلوبنا أبطأ للغاية. سيأتي اليوم عندما ينبغي علينا أن نهز أنفسنا لتواصل قلوبنا خفقانها. لقد غطسنا عميقاً في هذا الصّمت، وأصابنا الشلل بواسطته، إننا في قاع البئر الذي علينا أن نخرج أنفسنا منها بصعوبة لا يمكن تصورها».

(غونتران دي بونسينس: كابولانا)[1].

يمكن للمرء أن يسمع الإنسان يرتعش في هذا المقطع خشية ألا ينحلّ في الصّمت ويصبح مجرد جزء من صمت الطبيعة. يبدو أنّ الكلمات قد نمت في الخوف، ألقيت مثل ظلال على جدار الصّمت، الصّمت الذي يدنو أقرب من أي وقت مضى.

ينحشر صمت الطبيعة في الإنسان. روح الإنسان تشبه السماء فوق

---

(1) كاتب فرنسي عاش في الفترة (1900-1960).

السطح العريض للصمت. تجعل الروح صمت الإنسان جزءاً من العالم الإنساني. إنها تحرر الصّمت الذي هو مجرد طبيعة وتربطه بذلك الصّمت الذي جاءت منه الكلمة والذي تكون فيه هناك علامة لصمت الله.

الشعر والصّمت

1

ينبعث الشعر من الصّمت ويحنّ إلى الصّمت. مثل الإنسان ذاته، إنه يسافر من صمت إلى آخر. إنّه كالطيران، مثل التحويم فوق الصّمت. مثلما أن أرضية البيت مزخرفة بالموزاييك، فإن أرضية الصّمت مزخرفة بالشعر. الشعر العظيم هو موزاييك مرصّع بالصّمت.

هذا لا يعني أنّ الشعر أكثر أهمية من اللغة:

> «السامي والأكثر إبداعاً ليس ما هو متعذر وصفه، كما لو كان الشاعر بنفسه أكثر عمقاً مما يكشف عمله، بما أن أعماله تمثّل ما هو أفضل في الفنان...إلاّ أن الشاعر ليس فحسب هو ما تبقى في داخله غير معبّر عنه».
>
> (هيغل)

لا يستطيع الشاعر العظيم أن يملأ فضاء ثيمته كلّياً بكلماته. إنه يترك حيّزاً واضحاً، يتمكّن شاعر آخر واسمى أن يتكلم فيه. إنّه يسمح لآخر أن يساهم في الموضوع؛ إنه يجعل الموضوع خاصّاً به لكنه لا يبقيه بأكمله

لنفسه. لهذا مثل هذا الشعر ليس ثابتاً وجامداً بل يمتلك سمة محلّقة جاهزة في أيّ لحظة لتنتسب إلى الآخر، إلى شاعر لا يزال أسمى.

تأمّل، مثلاً، تصوراً يستخدمه غوته لوصف شيء ما. إنه لن يثقل الموضوع الذي يصفه؛ على العكس، إنه يجعله مضيئاً وحتى شفافاً.

والأمر مختلف تماماً في عمل إرنست يونغر[1]. فقد شغل كلّ حيز الموضوع بخياله؛ لقد حبسه، جعله بلا حماية، ولم يحجب الموضوع فحسب بل سحقه حتى الموت. لقد احتله وهزمه، ولا يوجد هناك حرية في مثل هذا العمل.

فقط حين يكون الشعر مرتبطاً بالصّمت يكون مناجاة ملائمة: لأن الفرد المتحدث ليس وحيداً، بل إنّه يقف بمواجهة الصّمت، والمناجاة هي في الواقع حوار مع الصّمت.

> «ستكشفُ عن جهلٍ كبير أن تستهين بالمنولوج وحتى أن تسميه مصطنعا... عندما يجري سير الحوادث العظيم والمؤثر على المسرح، يبدو ذلك الذي يفتح كلّ القلوب أن يكون الأقل تكلّفا».
>
> **(يعقوب غريم)**

ينبغي ألا يكون حيّز الصّمت في كل قصيدة مشوشا بالفضاءات الفارغة التي تكون موجودة أيضاً في كل شعر عظيم. هذا الفراغ ليس فراغاً حقيقياً، بل يشبه الشعر الذي يوجد أحياناً في الطبيعة. إنه ليس ضعفاً أو نقيصة. ذلك هو الأمر مع غوتهيلف، مثلاً: الفضاءات الفارغة تشبه الطبيعة في استراحة، ولهذا فإنها تشبه في الحقيقة فضاءات لصمت صادق.

---

(1) إرنست يونغر: كاتب ألماني عاش في الفترة (1998–1895).

لا تملك كلمة الشاعر علاقة طبيعية مع الصّمت الذي تَبعث منه فحسب، بل يمكنها أيضاً أن تنتج صمتاً خلال الروح التي فيها. عبر عمل الكلمة الخلاق، يمكن إعادة خلق الصّمت، الذي هو طبيعي بصورة خالصة، مرة أخرى، بواسطة الروح. يمكن للكلمة أن تكون قوية جدّاً، كلمة تامة على الإطلاق، بحيث يكون نقيضها، الصّمت، موجوداً بصورة أوتوماتيكية. الكلمة تمتصّه: يسمع الصّمت المكتمل كصدى كلمة تامة.

تم إنتاج صمت قوي بعد كل مقطع شعري في «استهلال في السماء» في فاوست غوته بواسطة كلمة قوية. يوجد هناك صمت مسموع فعّال بعد كلّ مقطع شعري، تقف الأشياء التي أثارتها الكلمة بلا حركة في الصّمت، كما لو أنها كانت تنتظر استدعاءها إلى الصّمت وتتلاشى هناك. لا تحمل الكلمةُ الأشياء خارج الصّمت فحسب؛ إنّها تنتج أيضاً الصّمت الذي يمكنها أن تختفي فيه ثانية. لا تكون الأشياء عبئاً على الأرض: الكلمة تنقلها إلى الصّمت الذي تحوم فيه بعيداً.

2

فقد الشعر اليوم علاقته مع الصّمت. إنه جاء من الكلمة، من جميع الكلمات، ولا يوجد هناك حتى أيّ شيء تقريباً يمكن نقله بواسطة الكلمة. تبحث الكلمة وتفتش بالأحرى عن شيء لتنقله. إلاّ أن الشاعر الحقيقي يبدأ بالاستحواذ على الموضوع، ويمضي للبحث عن الكلمات، وليس العكس.

تتوجّه اليوم كلمة الشاعر إلى كلّ الكلمات. يمكن أن تتّحد بأشياء عديدة، وتجذب أشياء عديدة إلى نفسها؛ وتبدو حقيقية أكثر مما هي. تبدو الكلمة في الواقع كما لو أنها بُعثت إلى الخارج لتقبض على كلمات أخرى. ولذلك يحدث أن يقدم الكاتب اليوم أبعد مما يملك حقاً. يكون

شخصه أقل مما هو يكتب؛ إنّه ليس متطابقاً مع عمله. ولهذا يغلب عليه المرور بأزمات متعاقبة من جرّاء هذا التباين. يمكن أن يحدث في الأزمنة السابقة أن الشاعر كان مختلفاً عن عمله، لكن شخصه لم يكن معتمداً عليه، طالما أن العمل يعود إلى النظام الكوني للكون أكثر مما يعود إلى شخص الشاعر. لم يكن الشيء المهم هو طبيعة الموضوع الذي نطق الكلمة بل الصدق الموضوعي للشاعر. لم تكن هناك مسألة تعارض، ولهذا لم تكن هناك مسألة تعارض بين شخص الشاعر والكلمة المكتوبة.

لقد قلنا إن الشعر فقد علاقته بالصّمت. حتى إنّه يتطلّب من الشعر اليوم أن عليه أن يمثل عالم الضجيج؛ وينبغي أن يكون ذلك الضجيج مسموعاً في الشعر كما هو في أي مكان آخر. ويتصوّر المرء أن ذلك سيكون تبريراً للضجيج، وأنه يمكن التغلب على الضجيج أيضاً من خلال إقحامه في شعر موزون. لكن ليس من الممكن التغلّب على ضجيج العالم الخارجي بضجيج الشعر، لأن ضجيج الشعر يبدأ بالتزاحم مع صمت العالم الخارجي، وهذان الضجيجان يقعقعان بمحاذاة كلّ منهما. يمكن التغلب على الضجيج فقط بواسطة شيء يكون مختلفاً تماماً. لم ينتصر أورفيوس على العالم السفلي بأن يصبح مظلماً كالعالم السفلي بل من خلال صوت أغنيته المشرق، المختلف تماماً.

3

الكلمة التي تشارك في عالم الصّمت تعبر عن شيء مختلف تماماً عن نفس الكلمة التي تم إبعادها إلى حد بعيد عن الصّمت. ولهذا السبب يكون من الصعب، مثلاً، تفسير هولدرين بكلمات اليوم. ولكن لأننا نشعر بأن كلمات اليوم، بالضبط، لم تعد تنسجم مع الكلمات نفسها من عصر أسبق، فإنّنا نحاول دائماً لنفهم الكلمات القديمة. لقد تم منعنا من

لغة هولدرين، ومع ذلك فإنّنا لا نزال ظاهرياً قريبين منها؛ وهذه الحقيقة تحثنا لنقوم بمحاولة تلو الأخرى لاختراقها. كلمات مثل هؤلاء الشعراء الذين يعيشون على علاقتهم بالصّمت غامضة[1] اليوم. إنها طلاسم ملغّزة، طلاسم الصّمت.

يبدو هولدرين اليوم واقفاً بصمت في صف مع لاوتسي، سوفوكليس، شكسبير، غوته، وجميعهم صامتون أيضاً؛ وأن يصطفّوا واحداً إلى جانب الآخر على هذا النحو، فإن طبيعتهم تغدو مرئية في الصّمت. يصبح شكلهم الطبيعي بيّن جدّاً بحيث تنهض الكلمة الأصلية ثانية من كمال هذه الطبيعة المرئية بصورة ملموسة.

أمثلة

«وجوه بدائية
لكن أين تذهب روحي؟
تعال إلى البيت، تعال إلى البيت.
إنها رحلت بعيداً جنوباً،
جنوب الناس حتى جنوبنا.
تعال إلى البيت، تعال إلى البيت.
لكن أين تذهب روحي؟
تعال إلى البيت تعال إلى البيت.
إنها رحلت بعيداً شرقاً
شرق الناس إلى شرقنا.
تعال إلى البيت، تعال إلى البيت.
لكن إلى أين ذهبت روحي؟

(1) الغموض هنا بمعنى الإشكالية وتضمينها لبعض الإبهام وبالتالي صعوبة الوصول إلى المعاني

تعال إلى البيت، تعال إلى البيت.
إنها رحلت بعيداً شمالاً،
شمال[1] الناس حتى شمالنا
تعال إلى البيت، تعال إلى البيت.
لكن أين تذهب الروح؟
تعال إلى البيت، تعال إلى البيت.
إنها رحلت بعيداً غرباً،
غرب الناس حتى غربنا.
تعال إلى البيت، تعال إلى البيت».

(أغنية من الإسكيمو طبقاً لراسموسن)

في هذه الأغنية يبدو كما لو أن اللغة تجرؤ بالكاد على الوجود. إنها مفصولة بالفعل عن الصّمت، لكنها لا تزال غير واثقة من نفسها. إنها تكرّر نفسها باستمرار كما لو أنها أرادت أن تتعلّم كيف تعيش، وكانت خائفة من الاختفاء. كما لو أن الأغنية تواصل الغناء حتى حين يكون المغني نائماً. الأصوات محفورة في الهواء كأنها أسطوانة غراموفون للصمت. ثمت كآبة كبيرة في أغاني السلالات البدائية، كآبة الإنسان الذي لديه خوف مضاعف: إنه خائف لأنه أُقصي من الصّمت عبر الكلمة، وهو خائف لكونه أُلقي ثانية إلى الصّمت وفقد الكلمة مرة أخرى. تتحرّك كآبة الأغنية بين هذين الخوفين بما لا نهاية، اللذين هما لا نهائيين كالصّمت ولا نهائيين كاللغة.

الإنسان البدائي خائف بصورة كبيرة من فقدان اللغة، ولهذا السبب يكررها غالباً. كلمة الأغنية هي خفير في الليل الذي يغطي الصّمت. كما

(1) فعل شمّل، أي توجهوا شمالًا.

تُفزع النار الحيوانات العدوانية، ترعب كلمات الأغنيةِ الصّمت العدواني الذي ينتظر لافتراسها.

قصة الجن

الوقائع في قصص الجن بسيطة جدّاً.

«لم يعد لدى الوالدين خبز، وكان عليهما في هذا الظرف الاستثنائي أن يعتنيا بأطفالهما، أو تتركهم زوجة الأب القاسية يعانون، وحتى ترغب أن تتركهم كي يموتوا. أخ وأخته تركا في ذلك الوقت في عزلة الغابة؛ كانا مرتعبين من الشتاء، لكن عضد أحدهما الآخر في الصغيرة والكبيرة؛ فالأخ الصغير يعرف كيف يجد الطريق إلى البيت ثانية، أو كيف تحوّلت الأخت الصغيرة بواسطة السحر إلى ظبي صغير، وتبحث عن الأشجار والطحالب لتصنع سريراً لأخيها؛ أو تجلس هادئة تخيط قميصاً ذا أزهار على شكل نجمة الذي يحطم الرقية السحرية. كل حلقة عالم هذه الحكاية محدد ومغلق؛ ملوك، امراء، خدم مخلصون وعمال يدويون صادقون، وإضافة إلى ذلك، صيادو سمك، طحّانون، موقدو فحم ورعاة، الذين بقيوا قريباً من الطبيعة، يظهرون فيها؛ كل شيء خارج هذه الحلقة المغلقة هو غريب عليها».

(يعقوب غريم).

الكلمات والأفعال في قصص الجن بسيطة جدّاً بحيث إنها يمكن أن تختفي في أي لحظة ببساطة تماماً. وليس عليها أن تتحرّر أولاً من العالم المعقد. إنّ فقر قصة الجّن ينبع من حقيقة أنّ لا شيء فيها ثابتاً: كل شيء جاهز ليسلّم نفسه ويختفي ثانية.

أثناء ذلك تتحدث النجوم الكبيرة، مع ذلك، مع الأطفال الصغار، الخيول مع الملوك، وحتى الأشجار تملك قوة اللغة وتنادي على البشر. في قصة الجن ليس مؤكداً تماماً بعد فيما ستستقبل النجوم والأزهار والأشجار أو الإنسان قوة اللغة: كل شيء مؤقت فحسب. كما لو أنّ الصّمت في أعماق القصة كان يأخذ في الإعتبار لمَن ينبغي عليه أن يمنح اللغة إلى الأبد - إلى النجوم، الأشجار، أو إلى الإنسان. استلم الإنسان الكلمة، إلاّ أنّ الأشجار والنجوم والحيوانات استمرت تتكلم لفترة أيضاً.

«في حكاية الجن العبقرية ينبغي أن يكون كلّ شيء غريباً، ملغّزاً، متنافراً... كلّ الطبيعة ينبغى أن تكون ممزوجة مع عالم الروح بطريقة رائعة؛ إنه عصر الفوضى الكونية، الحرية وحالة الطبيعة الطبيعية قبل إقامة العالم. هذا العصر قبل خلق العالم، مثلما حالة الطبيعة البدائية، هو صور غريبة للمملكة الأبدية».

(نوفاليس).

كل حادثة في قصة الجن تشبه بداية جديدة، مثال القانون الجديد الذي يشكّل أساس عالم يختلف عن عالمنا. هناك حزمة عوالم ممكنة في قصة الجن، ولهذا تتدفّق منها ثروة لا حدود لها. الغرابة هي أن العالم الإنساني، العالم الذي يملك فيه الإنسان الكلام فقط، هو الإمكانية الوحيدة التي تحقّقت. تفضي بنا قصة الجن إلى أن نبجل هذه الغرابة. عالم الصّمت يصبح أسطع وأكثر إشعاعاً، بينما عالم حكاية الجن الملوّن يتمدّد فوقه.

كلّ شيء في حكاية الجن وقع فعلاً قبل أن يحدث. الكلمات تتبع الأشياء على عكس مما تسبقها أو تعلن عنها. كلّ شيء جاهز مسبقاً قبل

أن تبدأ الكلمات أن تحكي القصّة. كلّ شيء يمكن أن يحدث بصمت، من دون أيّ كلمات على الإطلاق. الحقيقة أنّ ما يمكن أن يحدث بصمت يكون مصاحباً بكلمات هو قصة جن بحدّ ذاتها.

الأمثال

افترض مثلاً: «إنّ دورق المياه يذهب غالباً إلى البئر بحيث يأتي مكسوراً إلى البيت أخيراً». بدت مثل هذه الجملة في يوم من الأيام وكأنها انبعثت للتو من الصّمت. إنّها مثلت صورة ملموسة للدورق، الطريق إلى البئر، والبئر ذاتها. شخص رأى الدورقَ يدور على عجلة الخزّاف؛ وسمع شخص آخر الماء يسقط في البئر في الدورق، والناس يمشون جيئة وذهاباً من بيوتهم إلى البئر. الجملة كانت راسخة ومتماسكة جدّاً بحيث بدت مستقلة تماماً عن الإنسان. بدت موجودة حتى قبل نطقها من قبل الإنسان؛ بدت كما لو أنها وجدت قبل أن ينطقها الإنسان في وقت من الأوقات، وأن تكون من أجل الإنسان أكثر مما تكون منطوقة منه.

لكن في العالم الحديث، الذي فقد العلاقة بالصّمت وكلّ تجانس داخل نفسه، فإن الدورق، البئر، والطريق إلى البئر قد تمزّقت. الدورق مكسور حقيقة. ينبغي أن يكون مثل هذا المثل كأنه رُمّم من الشذرات المتكسرة، مثل ذاكرة مهشمة لعالم تام، أنقذ[1] من حطامه، تم ترميمه في جملة لم يعد أحد يتمكّن في الواقع من فهمها.

كانت الأمثال ذات مرة مثل بداية العالم، لوحات مدوّنة في بداية العالم. لكن اليوم فإنها نهاية العالم، آخر الجمل الباقية، آخر الكلمات المتجمّعة معاً في جمل مندمجة في عالم مفكّك.

---

(1) الترجمة الحرفية «تم التنقيب عنه».

كما لو أن الأشياء والحوادث قد وُجدت بفترة طويلة قبل الكلمات، وكما لو كانت الكلمات بحاجة إلى الوقت كي تصل وتمنح أسماء لها. هذا الوقت الصامت موجود في دراما العصور القديمة. أحياناً كما لو أن الأشياء تمضي بصمت وبشكل خطر في طريقها الخاص، ومع ذلك تنتمي كلّياً إلى عالم الصّمت، تتبعها الكلمات، التي تريد تثبيتها.

هذا العالم البطولي لدراما العصور القديمة الكلاسيكية، هذا «العالم العقيم، لا يحتوي على أيّ شيء سوى الصراعات، مآسٍ ملكية وآلهة»، كما يصفه يعقوب بوركهارد، هذا العالم يحتاج إلى خلفية الصّمت، الذي هو نفسه «أعظم كل الموجودات العقيمة».

كان الآلهة هم الممثلين الرئيسيين في دراما العصور القديمة الكلاسيكية، ولعب الإنسان دوراً ثانوياً فقط. رافقت الآلهة البشر والأشياء؛ وكان صمتها حاضراً في البشر والأشياء. «نحن نتعلّم الصّمت من الآلهة، والكلام من الإنسان» (بلوتارك). سُمع صمت الآلهة في التراجيديا الكلاسيكية من خلال كلام الإنسان. الإنسان يتحادث لكي يسمع هذا الصّمت؛ انه يموت كي يسمعه. عندما يموت البطل، فكما لو كان صمت الآلهة حيّاً ويتحدث وحيداً.

توجد اللازمة[1] بين كلمة الإنسان وصمت الآلهة. خلال اللازمة تستسلم كلمة الإنسان إلى صمت الآلهة. إنها تتوقّف هنا، في اللازمة قبل أن تمر إلى صمت الآلهة، وهي تتوقّف هنا أيضاً، حين تأتي من صمت الآلهة.

تكلم أبطال العصور القديمة إلى البشر، لكن كان هناك صمت أكثر من

(1) لازمة الأغنية أو الترنيمة أو قرارها أغنية ينشدها الكورس؛

الكلام في أفعالم، وكانوا صامتين كأنهم أمام الآلهة. تبعت الكلمات التي نطقوها خطوط الصّمت فحسب التي رسمتها الآلهة مسبقاً. ولان الكلمات كانت تختفي دائماً فوق خطوط الصّمت، فقد كان يتم تكرارها مرة بعد الأخرى. «شهرتك ستشرق عليك في كل العالم وإلى الأبد، يا أخيل».

ما قبل السقراطيين

تبدو كل جملة قد انبعثت مباشرة من الصّمت. لا تزال الجُمل تبدو مذهولة لتجد أنها موجودة على الإطلاق. لا تزال الكلمات تمسح النوم من عيونها؛ فهي ليست ذاتها تماماً بعدُ؛ إنها لا تزال في نصف المسافة بين النوم واليقظة. إنها تتكلّم لكي تؤكّد نفسها، ولتسمع نفسها. وهي تعتقد بالكاد أنها موجودة في عالم اليقظة وعالم الكلمات.

> «أشعل الإنسان نوراً لنفسه في الليل، لأنه ميت ومع ذلك لا يزال حيّاً. في النوم لمس نفسه كميتٍ عندما تلاشى نور عينيه، لكن في اليقظة لمس نفسه ليس ميتاً بل نائم فحسب».
>
> (هيراقليطس)

لا شيء في هذه الجملة موجود هناك لذاته: شيء واحد يندمج مع الآخر. النوم لم يحدد بعد بصرامة نوماً، بل إنه لمس الموت ولمس الحياة. كلّ شيء لا يزال عاجزا بعض الشيء. كلّ شيء لا يزال ممسكاً كلّ شيء آخر باليد. اليقظة تمسك النوم باليد، والنوم يمتد نحو الموت. لا أحد منهما يريد أن يكون متروكاً كلّياً لحاله.

كلماتُ لم تجد بعدُ بيتاً حقيقياً في عالم الكلمات؛ إنها لم تجد بعدُ أيّ بيت حقيقي إطلاقاً. إنها كلمات سقطت من حلم الصّمت واندفعت إلى صمت الآلهة. لكن بعيداً عنها نزلت مثل نيازك صخور في عالم الإنسان، مشوشة كلمات إنسانية مع صمتها، مع الصّمت الذي يعود إلى الآلهة.

توجد الموضوعات، الحوادث، بصورة ملموسة، ووجودها الملموس هو قصة بحدٍّ ذاتها. كما لو أن الموضوعات والحوادث تخبر بعضها البعض الآخر وليس الإنسان عن نفسها - الموضوعات والحوادث تكون أولية بصورة ملموسة جدّاً، ثم يبلّغ عنها الإنسان بصورة ثانوية. ذلك ممكن فقط عندما تقصد الكلمة إلى الموضوع الحادث كما لو أنه كان لأول مرة، إلى الموضوع والحادث اللذين تنتمي إليهما، وتتمسّك لهذا بهما بحيث إن الكلمة والموضوع هما في وحدة.

في العصور اللاحقة، أيضاً، التي تم التلاعب فيها بالموضوعات والكلمات بصورة مستمرة، لا يزال ممكناً بالنسبة للشاعر أن يحافظ على وحدة الكلمة والموضوع بمثل هذه الطريقة ليجعلها تبدو كما لو أن الكلمة والموضوع يلتقيان لأول مرة وإلى الأبد؛ كما لو أن الموضوعات تخبر عمّا هي خلال وجودها الخالص، من دون وساطة اللغة.

وهو على هذا النحو في كتاب يوهان بيتر هيبل[1] [2] Schatzkästlein

كما لو أن الموضوعات في تلك القصص قد هربت من عالم صاخب، ممزّق يوقع الفوضى، إلى وادٍ معزول حيث تخبر هناك إحداها الأخرى عن نفسها، كما لو أنّه لم يكن هناك بشر يصغون؛ متخطية الزمن بالذكريات والنكات ومنتظرة هنا في الوادي المعزولِ العالمَ كي يعود، الذي يحدث فيه كلّ لحظة ذلك الذي حدث ذات مرة لهم: بحيث

(1) يوهان بيتر هيبل شاعر وكاتب قصة قصيرة الماني عاش في الفترة بين (1760-1826)

(2) Ausdem Schatzkästlein des rheinischen Hausfreundes وهنا إشارة الى مجموعة قصصية للكاتب بيتر يوهان هيبل بعنوان

إن الكلمة تشبّث بهم ضد حركة غير ضرورية وكاذبة، ضد أنه جرى التلاعب بهم.

لم يعد هناك أي بشر صامتين في العالم اليوم؛ لم يعد هناك حتى أي فرق بين الإنسان الصامت والمتكلّم، (بل) فقط بين الإنسان المتكلّم وغير المتكلّم. ولأنه لا يوجد هناك بشر صامتون فلم يعد هناك أي منصتين أيضاً. إنسان اليوم غير قادر على الإنصات؛ ولأنّه عاجز عن الإصغاء فهو لم يعد قادراً على أن يقصّ قصة، لأن الإصغاء والقاص الحقيقي ينتميان إلى بعضهما: إنّهما متوحدان.

في قصص «صندوق الكنز»[1] لا يسمع المرء القاصّ فقط، بل صمت أولئك الذين يصغون أيضاً. ويسمع المرء كيف أنّ المُنصت ذاته يشرع، بعد هذا الصّمت، بسرد قصة، لأنّ المنصت وراوي القصة يتناوبان.

شكسبير

تكون الكلمات والمشاهد جديدة وحيّة كما لو أنها طفرت في هذه اللحظة تماماً من الصّمت إلى اللغة. لا يزال عنصر اللغة جديداً بالنسبة إليها. إنها تثب فرحاً فيها مثل حيوانات صغيرة أطلقت لأول مرّة من الحبس. جرت وحيدة بصفوف طويلة. بعضٌ يواجه الآخر كجيوش معادية. بعضٌ يصعد على الآخر بحماسة. لكن هناك كلمات تنتظر وحيدة مثل حراس شيئاً ما (كلمات أوفيليا في هاملت، على سبيل المثال). أكثر الكلمات الجميلة صيغت في صور، صور[2] تشبه أشكال زخرفية، مثل علامات تعلن أن الكلمة لا توجد هنا فحسب، بل تقطن في أبهة احتفالية.

---

(1) Schatzkästlein إشارة إلى المجموعة القصصية

(2) يمكن ترجمتها «أخيلة» ايضا

جان باول[1]

كل شيء عند جان باول يكون هناك على الفور: إنه لا يتطوّر، بل يكشف عن نفسه. إنّه شعر ينتقل من كلمة إلى أخرى، إلا أنه ساكن كمجموع، يحوم على الصّمت مثل غيمة وديعة؛ والصور الفعلية هي مثل رؤى الصّمت. تكمن سحرية هذه اللغة في معادلة من حركة من كلمة إلى أخرى وسكون كامل البُنية: الحركة والسكون هما واحد.

تشبه الكلمات أجنحة طير ضخم يرتفع فوق سطح الصّمت ويلقي ظلاً عريضاً بينما هو يطير.

هولدرين

تأتي الكلمات كما لو أنها خارجة من فضاء وجد قبل بداية الخلق. هذا الفضاء خلف الخلق يتردد صداه في الكلمات بهيبةٍ ووعيدٍ تقريباً. يأتي المجهول، المرعب، وأيضاً المهجور[2] في شعر هولدرين من ذلك. تنادي الكلمة على الإنسان خلال غرفة انتظار الخلق. إنها تشبه الكلمة التي تتحادث قبل خلق الإنسان: نابضة بالحياة بتوقٍ للإنسان.

غوته

أغنية ليلية[3]

أوه، تحلم من على وسادتك الناعمة،

أعرني نصف إصغائك،

إلى عزف عودي

---

(1) جان باول (1763-1825) كاتب الماني اشتهر بكتابة القصص والرواية

(2) يمكن ترجمتها أيضاً المنبوذ

(3) «أغنية ليلية» قصيدة للشاعر الألماني غوته والنص بالألمانية

يا نائمَ! ماذا تريد أكثر؟
تبارك مجموعة من النجوم
المشاعر الخالدة
لعزف عودي
يا نائم! ماذا تريد أكثر؟

تلك المشاعر الأبدية
ترفعني بجلال عالياً
بعيداً عن الحشد الدنيوي
يا نائم! ماذا تريد أكثر؟
بعيداً عن الحشد الأرضي
عزلتني على عجل للغاية
أدخلتني في هذا المكان البارد
يا نائم! ماذا تريد أكثر؟
دخلتني في هذا المكان البارد
إصغِ لي في أحلامك فحسب
آه، على وسادتك الناعمة
يا نائم! ماذا تريد أكثر؟

تماماً مثلما يصيح الأطفال خارج بيت زميلٍ لعبٍ ينتظرونه، فإنّ كلمات الحبيب تهتف هنا من أجل كلمة من المحبوب؛ ليست بصخب كالأطفال، بل بهدوء، لأن كلمات المحبوب محفوفة بالنعاس. كما لو كان الحبيب يحاول أن تجذب كلمات المحبوب من الحلم. مثل كرات رقيقة، ناعمة تندلق الكلمات على المحبوب النائم. ترتدّ مثل نداوة الصّمت على الكلمة من المحبوب.

ضجيج الكلمات

1

لم تعد الكلمة اليوم تخرج من الصّمت، خلال عمل الروح الإبداعي الذي يمنح معنى إلى اللغة وإلى الصّمت، بل من كلمات أخرى، من صخب كلمات أخرى. ولا تعود إلى الصّمت بل إلى ضجيج كلمات أخرى، لتصبح مغمورة هناك.

فقدت اللغة سمتها الروحية؛ كلّ ما تبقى هو سمتها السمعية المحضة. هذا هو تحول الروح إلى المادة، تحوّل الكلمة التي هي الروح إلى مادة الصخب.

ضجيج الكلمات هو الفراغ الهادر الذي يغطي الخواء الخامد. الكلمة الحقيقية هي، من الجانب الآخر، الكمال الهادر فوق السطح الهادئ للصمت.

ثمتَ اختلاف بين الضجيج العادي وضجيج الكلمات. الضجيج هو عدو الصّمت؛ إنه النقيض إلى الصّمت. ضجيج الكلمات لا يكون مجرد نقيض فحسب إلى الصّمت: إنه يجعلنا ننسى حتى إنه كان هناك دائماً شيء كهذا مثل الصّمت على الإطلاق. وهو حتى ليس ظاهرة

صوتية: العنصر الصوتي، الطنين المستمر للصخب اللفظي، هو مجرد دليل على أن كل الفضاء وكل الوقت كانا مملوئين به.

يكون الضجيج العادي، من الجانب الآخر، محدوداً، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع محدّد، إنّه بلاغٌ عن ذلك الموضوع. يندفع صخب التجمع الاحتفالي أو الموسيقى الفلاحية تدريجياً وبحذر مع الصّمت الذي يمنح كثافة وأهمية إلى الضجيج. يكون الصّمت كأنه كان موضوعاً على جبهات الصخب، منتظراً الوقت وقتما يتمكّن من الظهور ثانية. لكن الخواء والعدم فقط يكونان موضوعين على جبهات الصخب اللفظي.

لم تعد الكلمات تنبعث من الصّمت اليوم بل من كلمات أخرى، من صخب كلمات أخرى. الكلمة التي تنبعث من الصّمت، من الجهة الأخرى، تنتقل من الصّمت إلى الكلمة ومن ثم تعود ثانية إلى الصّمت، تنبعث من الصّمت وإلى كلمة جديدة وتعود ثانية إلى الصّمت وهلم جرّاً، بحيث تأتي الكلمة دائماً من مركز الصّمت. تتم إعاقة تدفّق العبارة بواسطة الصّمت باستمرار. تقاطع العوائقُ العمودية للصمت بانتظام التدفق الأفقي للعبارة.

على النقيض من ذلك، يتحرك صخب الكلمة بلا انقطاع باتجاه أفقي؛ يبدو أن الأمر الوحيد المهم هو أنّ على الصخب أن يواصل من دون انقطاع، من دون أن يعني ذلك شيئاً[1].

> «تختفي المدن المزدحمة، وتأتي مدن أخرى مزدحمة، وتختفي أيضاً: وأخرى تأتي، وتختفي. البيوت، خطوط البيوت، الشوارع، أميال من الأرصفة، آجر مكوّم، أحجار. أيد متبدلة. هذا المالك، وذاك. صاحب الملك لن يموت

(1) الجملة الأخيرة مكتوبة بخط مائل في النص الألماني الأصلي، لكنني أبقيتها من دون ذلك كما جاءت في النص الإنكليزي الذي أترجم عنه.

أبداً يقولون. آخرون يحتلّون مكانه حين يستلم انذاراً بإخلاء الدار. إنهم يشترون المكان. يشترون كل شيء بالذهب، ومع ذلك فهم يملكون كل الذهب. به يغشون في مكان ما. متكدّسون في المدن، يتفاقمون عصراً بعد عصر. أهرامات على الرمل. بنيت على الخبز والبصل. عبيد. حائط صيني. بابل. أحجار ضخمة متروكة. أبراج مستديرة. أنقاض خامدة، ضواحٍ عشوائية، رخيصة البناء، بيوت كرفان تنتشر كالفطر، مبنية من الريح. ملجأ من أجل الليل. لا أحد يكون أيّ شيء. هذه هي أسوأ ساعة من النهار. نشاط. ضجر، وجوم: أكره هذه الساعة. أشعر كما لو أنني قد أكلت وتقيأت».

(جيمس جويس)

ذلك هو مثال للغة الضجيج اللفظي.

في هذه التي تسمى اللغةُ، المبتدأ، الخبر، المفعول به والظروف كلّها مخلوطة معاً. تصبح الجملة كتلةً، صوتاً بلا ملامح، منها ينبعث صوت واحد يدوّي أحياناً بوضوح أكثر من الأصوات الأخرى. مثل هذه الكلمات هي مجرّد تنويهات، مجرّد إشعارات لشيء ما: إنها لا تغامر لتعني أي شيء. (يمكن للمرء أن يقول إنه يمكن نقل المعاني حتى بواسطة الصخب اللفظي. وذلك صحيح جدّاً. لكن المعنى المنقول هو محض تعبير مادي عن الواقعة؛ إن المعنى الحقيقي ممكن فقط عندما يعزو، ويجلب الانتباه إلى الشيء اللامحدود الذي تم وصفه (هوسرل). هذه سمة اللانهائية، التي لا يمكن التعبير عنها إطلاقاً بصورة كاملة أو استهلاكها بواسطة الكلمات، موجودة في الصّمت. لهذا، فمن الصحيح، أن المعاني المادية منقولة في الضجيج اللفظي، لكن الوسط

الذي تظهر فيه المعاني - وسط الضجيج اللفظي - يكون معادياً لطبيعة المعنى ذاتها؛ إنه يثقل ويبتلع المعنى).

تصبح اللغة مجرّد أداة آلية تنقل علامات اللغة الظاهرية.

وتكفّ اللغة عن أن تكون عضوية ومرنة، تكف عن إقامة الأشياء بثبات. أصبحت الكلمات مجرّد دلالات على أن شيئاً ما استخرج من فوضى الضجيج وألقي على المستمع. الكلمة ليست كلمة بشكل محدّد. يمكن استبدالها الآن بالعلامات؛ لقد صارت أداة، ومثل كلّ أداة صرف فإنها تواجه دائماً إمكانية التحطيم. ولهذا فإنّ الإنسان الذي لا يعيش مباشرة من الكلمة، بل يسمح لنفسه بأن يكون مجذوباً بأداة الصخب، يواجه أيضاً التدمير في أيّ لحظة.

لا تبدو هذه الأصوات الصاخبة اللفظية أن تكون منطوقة من قبل البشر على الإطلاق: إنها أشباح لفظية قادمة من عالم الكلمات الميتة، تتحدث بين أنفسها، كلمة ميتة واحدة مع أخرى، ومفرح لو حدث أن تصوغ اثنتان أو ثلاث كلمات نفسها في جملة مترابطة منطقياً، مثلما تكون الأشباح فرحة عندما تلتقي ببعضها البعض في مكان شبحي.

«يكمن تدمير الحياة في تحويلها إلى عدو. الحياة خالدة وعندما يتم قتلها تبدو مثل شبح مرعب من ذاتها».

(هيغل)

تدمير الكلمة يكمن في تحويلها إلى عدو، لكن ليس إلى عدو يواجه، بل إلى عدو يخترقنا وينفذ فينا كالشبح.

قارن جملة من عالم الكلمات الحقيقية، جملة من ج. ب. هيبل:

«أمر لافت للنظر أن إنساناً يبدو أن يكون بلا جوهر الى حد بعيد يتمكّن من منح الحكمة إلى آخر يعتبر نفسه حكيماً ومدركاً بصورة استثنائية».

كلّ جزء في هذه الجملة متقن في ذاته، واعٍ لقيمته، مرتكن إلى خاصّيته، مع أنّ كلّ الكلمات ارتبطت بشيء أعلىً. «أمر لافت للنظر»: هذه الكلمات تخلق فضاءً للحادث. كما لو أنها تضرب طوقاً حول غرفة بحيث يمكن أن يحدث فيها شيء محدد. ومع الكلمة الأخيرة «لافت للنظر» كما لو أن أحداً استطاع رؤية لائحة تعلن أن شيئاً هاماً كان على وشك الوقوع هنا. «وأنّ إنساناً بعض الأحيان»: إنساناً يظهر بتردّد في هذا المكان المحدد: «بعض الأحيان» هي علامة على أنه متردّد. «الذي يبدو أن يكون بلا جوهر كبير»: يبدو الإنسان ضئيلاً في هذا الفضاء الكبير. ينتظر المرء ليرى ما الذي سيحدث له، فيحدث «أنه يتمكّن من منح الحكمة إلى آخر». وعلى حين غرّة، يبدو الإنسان الصغير المتردّد كبيراً والإنسان الذي «يعتبر نفسه حكيماً ومدركاً بصورة استثنائية» يصبح صغيراً فوراً. كما لو أخذت «الحكمة والإدراك الاستثنائيان منه مقابل أمتعة كبيرة جدّاً لا تخصه».

تشير كل كلمة في هذه العبارة لهيبل الى أن الجملة استقرّت بثبات. هذه العبارة محمية جدّاً والكلمات التي فيها محمية جدّاً، بحيث يحتاج العالم فقط إلى عبارة قصيرة تشبه تلك ليجاهر بأنها موجودة. يقف كلّ العالم وكلّ كلمات هذا العالم إلى جوار هذه العبارة.

2

الضجيج اللفظي الذي احتل مكان الكلمة الحقيقية اليوم لا ينبعث مثل الكلمة من فعل محدد. إنه لم يولد بحيوية، بل أنتج عن طريق الانتشار - أعني: ضجيجاً واحداً ينشطر لينتج ضجيجاً آخر. خلقت الكلمة الحقيقية في المجال النوعي، والضجيج اللفظي في المجال الكمي.

لا يبدو الضجيج اللفظي في الواقع أنه مخلوق بصورة محدّدة أبداً. يبدو أنه كان موجوداً دائماً هناك. لا يبدو أن يكون هناك أيّ حيز باقٍ حيث يكون من الممكن وجود أي شيء في وقت من الأوقات سوى الصخب. لقد اخترق كلّ شيء. نعتبره أمراً مسلّماً به مثلما نعتبر أن الهواء أمر بديهي. كلّ شيء يبدأ وينتهي مع الضجيج. لا يبدو أن وجوده يعتمد على الإنسان إطلاقاً: إنّه يبدو أن يكون شيئاً موضوعياً (يقع) خارجه. لم يكن ضجيج الكلمات منطوقاً من قبل الإنسان إطلاقاً: نُطق ببساطة حوله. لقد اخترقه، ملأه حتى الحافة ذاتها، والصخب هو ما يندفع خلال شفير فمه.

لا أحد يصغي له بينما هو يتكلّم، لأنّ الإصغاء ممكن فقط عندما يوجد هناك صمت في الإنسان: الإصغاء والصّمت ينتميان إلى بعضهما. بدلاً من الحديث بصدق إلى الآخرين اليوم فإننا جميعاً ننتظر فحسب أن نفرّغ إلى الآخرين الكلمات التي تجمعت داخلنا. أصبح الكلام ذا وظيفة حيوانية إفرازية محض.

الضجيج اللفظي لا هو صمت ولا صوت. إنه يخترق الصّمت والصوت على السواء ويستدعي الإنسان كي ينسى كلاهما الصّمت والعالم.

لقد كفّ أن يكون هناك أي اختلاف بين الكلام والصّمت، منذ أن اخترق ضجيج واحد من الكلمات المتحدث وغير المتحدث معاً. أصبح المستمع الصامت ببساطة غير متكلّم.

الضجيج اللفظي هو لغة كاذبة وصمت زائف. بكلمة أخرى، شيء منطوق ومع ذلك فإنه ليس لغة حقيقية إطلاقاً. شيء يتلاشى في الصّمت ومع ذلك فإنه ليس صمتاً حقيقياً. عندما يتوقف الضجيج فجأة، لا يتبعه الصّمت، بل مجرد مهلة يتجّمع فيها الضجيج لكي ينتشر بقوة حتى أكبر عندما يتم إطلاقه.

كما لو أن الضجيج كان خائفاً أنه قد يختفي، كما لو انه كان في حركة باستمرار، لأن عليه أن يقنع نفسه دائماً بأنّه موجود حقاً. إنّه لا يعتقد بوجوده الخاص.

لدى الكلمة الحقيقية، على الضد من ذلك، مثل هذا الخوف، حتى عندما لا يعبر عنها في الصوت: وجودها محسوس في الواقع حتى بصورة أكبر في الصّمت.

يؤمن الإنسان، مع ذلك، الذي أصبح محض ملحق للضجيج اللفظي، على نحو متناقص بواقع وجوده الخاص. إنه ينظر إلى نفسه في الف صورة على الشاشة وعلى الأوراق المصوّرة، كما لو أنه كان يحاول أن يتأكد أن الإنسان لا يزال موجوداً، لا يزال يشبه إنساناً.

الإنسان غير حقيقي اليوم ذلك أن الناس لا يبدون في مكان أمام مرايا كبيرة حقيقيين، بل كما لو أنهم خرجوا من انعكاسات في المرايا، وتم إرسالهم من أجل عطلة. وعندما تطفأ الأضواء يبدو أنهم يعودون إلى المرآة ويختفون في ظلامها. لكن حيثما لا يزال الصّمت قوة فعالة، يُعاد خلق الإنسان باستمرار بواسطة الكلمة التي تنطلق من الصّمت، وتختفي باستمرار في الصّمت أمام الله. وجوده هو خلق متواصل في الكلمة خلال الله، واختفاؤه في الصّمت أمام الله.

وجوده اليوم هو مجرّد انبعاث مستمر من ضجيج الكلمات واختفاء دائم فيه.

3

اللغة مشروطة جدّاً بأصلها في اللوغوس[1] الذي هو نظام لا يسمح

---

(1) هنا بمعنى الكلمة الربانية أو كلمة الله.

بالكثير في العالم الإنساني، الذي يقع خارج النظام الإنساني. اللغة هي حماية بالنسبة للإنسان. العديد من الأشياء الشيطانية تنتظر كي تحتل الإنسان وتحطمه، لكن الإنسان محمي من الإتصال بالشيطان؛ في الحقيقة إنه غير قادر حتى على ملاحظته لأنّه لا يدخل في اللغة: الكلمة تدافع عن الإنسان من الاحتلال الشيطاني. لكن يكون الإنسان قادراً على أن يحافظ على قوته ضد الشر إذا أبقى الكلمة في طبيعتها الحقيقية فقط. ضجيج الكلمات، الذي هو بديل حديث عن اللغة، مخروم ولهذا مفتوح للاختراق من قبل قوى الشيطان.

كل شيء يمكن أن يتسلل إلى ضجيج الكلمات؛ كل شيء يمكن أن يمتزج فيه، حتى الشيطان. الضجيج ذاته هو في الواقع جزء من الشيطان.

في الضجيج تم ترويج كل شيء في كلّ الإتجاهات. معاداة السامية، الحرب الطبقية، الاشتراكية القومية، البلشفية، الأدب - كلّ شيء ينشر نفسه في كل الاتجاهات. وصل كلّ شيء إلى كل مكان قبل ظهور الإنسان على المسرح على الاطلاق. كل شيء ينتظره هناك. تم طمس كل القيود والحدود، وتم تحطيم كل المقاييس. الكلمة الحقيقية تقيم الحدود. ضجيج الكلمات يقفز على الحدود، يتجاهلها كلها.

من السهولة أن تصبح الحرب في هذا العالم من الضجيج اللفظي «شاملة»، لأنّ الحرب يمكن أن تستولي بسهولة على كلّ شيء من أجل أهدافها الخاصّة. كل شيء تم مزجه مسبقاً مع الحرب قبل أن تستولي على كل شيء.

يمكن قول كلّ شيء في هذا الضجيج اللفظي وكلّ شيء يمكن إلغاؤه ونسخه. لقد أُبطِلَ، في الحقيقة، حتى قبل نطقه. يمكن أن تقال أكثر الأشياء غباء وأكثر الأشياء ذكاء حتى يجري تسطيحها، لأن الأمر الرئيس هو الصوت العام للضجيج، وليس ما ينتج الصخب. في ما

أنه أنتج بواسطة الخير أو الشر فلا أهمية لذلك. هذه هي آلية انعدام المسئولية في العمل.

في عالم الضجيج اللفظي هذا، الذي ينتقل فيه أحد الأشياء إلى شيء آخر، حيث كلّ شيء موجود في كلّ شيء آخر، ليس هناك حدود في خارج أو داخل الإنسان. كلّ شخص قادر على الوصول إلى كلّ شيء، كلّ شخص يفهم كلّ شيء. ببساطة، لا يمكن أن يحدث أنّ شخصاً ما «مثل غوته» لا يتمكّن من فهم هولدرين، أو شخص «مثل يعقوب بوخاردت»، يتجنّب بتعمد رمبرانت (فحيثما يكون هناك شخص حقيقي، توجد هناك حدود في الشخص: ذلك هو كنه وطبيعة الأفراد الحقيقيين ذاته). لكن هنا في ضجيج الكلمات لم يُستثنَ أحد من امتلاك غوته وهولدرين ورمبرانت ويعقوب بوخاردت: كل شيء متاح لأي فرد.

كل شيء تم لهذا حمله بصحبة الضجيج، وأيّ شيء وكلّ شيء يمكن أن ينمو منه. لم يعد أيّ شيء ينشأ من عمل محدّد، بقرارٍ وخلال الإبداع. كلّ شيء يتحوّل بصورة آلية: ينتج الضجيج خلال نوع من التقليد ما تتطلبه ظروف اللحظة، وتم نقل هذا إلى الإنسان.

على سبيل المثال، لو أن العالم المحيط نازي، فإن نقل الأفكار النازية يكون بواسطة الضجيج، وهذا يحدث من دون أن يكون الإنسان قد حسم أمره نحو النازية عبر عمل خاص من ضميره. الإنسان إلى حد كبير هو جزء من الضجيج اللفظي الذي يلتف حوله بحيث إنه لا يلاحظ ما الذي ينقل إليه.

عندما تظهر حالة جديدة، يتوقّف الضجيج عندئذ عن نقل أفكار نازية إليه[1]- أو بالأحرى عندما تصبح ضجرةً من فكرةٍ متداولة، فإنها تغير

(1) يعني الإنسان هنا

نغمتها لغرض التغيير فقط. يعتمد سلوك الإنسان على حركة الضجيج، لم يعد يعتمد أكثر على إرادته. لم يعد الإنسان يعيش أطول مع وخلال الكلمة. الكلمة لم تعد هي المكان حيث يقرر الإنسان الحقيقة أو الحب: الصخب ذاته يصنع القرار له. الصخب هو الشيء الرئيس: الإنسان هو مجرد المكان محتلاً بالضجيج، هو المكان من أجل أن يملأه الضجيج.

لم يعد الضجيج أيضاً مستودعاً للعمل[1]: إنه مسبقا جزء من العمل وذلك ما يجعله خطيراً.

تأتي الكلمة الحقيقية، من الجهة الأخرى، تأتي من اللوغوس. حوفظ عليها بواسطة استمرارية وانضباط اللوغوس، وتم فحص حركتها من خلال علاقتها باللوغوس، الذي يأخذها إلى الأعماق وبعيداً من الاندفاع الأفقي للصخب الصرف. التزامات الإنسان العملي لا تنبعث لهذا مباشرة من الكلمة بل تأتي من الأعماق الكبيرة، من المكان حيث تنبعث الكلمة من اللوغوس. ولهذا فإن العمل ليس مثبتاً إلى الكلمة، بل على مستوى أعمق مع ذلك، إلى اللوغوس. ولهذا يكون مثل هذا العمل محمياً من أخطار حرية القول والفعل[2] المسرفة.

في الضجيج اللفظي العام ليس للأعمال موطئ قدم اليوم، لا حدود، لا ضابط، لأنها لم تحفظ في حدود مناسبة من قبل الكلمة. إنها في الحقيقة مغطاة بالضجيج من كل الجوانب. إنها تتلاشى في داخله والأفعال الحقيقية قد كفّت عن الوجود.

لهذا هذا هو العالم الذي يتحرّك آلياً مع الضجيج والعمل. إنه يبدو كعالم من سحر، لأن كل شيء يحدث فيه من دون قرار بشري، بمحض اختياره وإرادته. وهذا المظهر من السحر على وجه التحديد هو ما يغوي الإنسان.

---

(1) يمكن ان تترجم ايضا الى السلوك، النشاط..الخ
(2) يمكن أن تترجم إلى إجازة أو رخصة

في عالم الضجيج اللفظي تفتقر حوادث فردية لطابعها الخاص، الطابع الذي يمنحها وجهاً محدداً، تماماً كما كل شخص منفرد قد منح وجهاً معيناً.

«إنَّهُ لَمِنَ الْغَرَائِبِ الْكُبْرَى أَنْ تَكُونَ ثَمَّةَ فِي التَّارِيخِ وَفِي الْوَاقِعِ - وَبِشَكْلٍ طَبِيعِيٍّ أيضاً - بِشَكْلٍ طَبِيعِيٍّ إذا وَاحِدَةٌ مِنَ الْحَالَاتِ الَّتِي نَمُرُّ عَلَيْهَا بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْعَمَى، بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الاسْتِسْهَالِ، بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ اللَّامُبَالَاةِ، بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنْ مُرُورِ الْكِرَامِ، وَنَعْنِي هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْفَرْقِ الْمُطْلَقِ، الْمُتَمَثِّلِ فِي ثَمَنِ الحوادث. أَنْ تَكُونَ بَعْضُ الحوادث بِثَمَنٍ مُعَيَّنٍ، أَنْ يَكُونَ لَهَا ثَمَنٌ مُعَيَّنٌ، ثَمَنٌ خَاصٌّ بِهَا. أَنْ يَكُونَ ثَمَّةَ حادثانِ مُخْتَلِفَانِ مِنْ نَفْسِ الْمَنْظُومَةِ أَوْ مِنْ مَنْظُومَتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ، مَعَ تَكَوُّنِهِمَا مِنْ نَفْسِ الْمَادَّةِ أَوْ مِنْ مَادَّتَيْنِ فِي نَفْسِ الْمَنْظُومَةِ وَنَفْسِ الْقِيمَةِ، وَأَنْ تَكُونَ لَهُمَا رُغْمَ ذَلِكَ أَثْمَانٌ، قِيَمٌ مُخْتَلِفَةٌ إلى مَا لَا نِهَايَةَ: أَنْ يُشَغِّلَ كُلُّ حادث نَفْسَ الْمَادَّةِ، دَافِعًا نَحْوَ صَيْرُورَةِ نَفْسِ الْمَادَّةِ، فِي نَفْسِ الشَّكْلِ، أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ حادث رُغْمَ ذَلِكَ ثَمَنٌ خَاصٌّ بِهِ، ثَمَنٌ غَرِيبٌ، زَخَمٌ خَاصٌّ فِي ذَاتِهِ، قِيمَةٌ خاصّة، غَرِيبَةٌ...».

(شَارْلْ بِيـكِي)[1]

---

(1) قام المترجم رشيد حتّي مشكوراً بمراجعة النص والمساعدة بإعادة ترجمته من الفرنسية إلى العربية. ولم تتم ترجمة النص الفرنسي في الكتاب سواء في لغته الأصلية الألمانية أو اللغة الإنكليزية المنقول إليها. إلا أنني ارتأيت لإكمال الفائدة إلى القارئ العربي أن يكون مترجماً إلى العربية.

في عالم الضجيج اللفظي لم تعد الحوادث مفصولة عن بعضها البعض الآخر: الضجيج يجعلها متشابهة.

ولهذا السبب تكتسب الحوادث اليوم مثل هذه الأبعاد الواسعة؛ ولذلك السبب فإنها تصرخ وتزعق علينا. كما لو أن حادثاً واحداً كان يحاول أن يعزل نفسه عن كل الحوادث الأخرى من خلال عمل الكثير من الصخب قدر الإمكان، طالما انه لم يعد يقوم بذلك بصورة طبيعية.

يعالج كتاب راهن «عام 1848 في أوروبا»، وهو تصنيف للأحداث يوماً بيوم على مدار السنة. وقعت أمور عديدة في 1848. أمم بأكملها انتفضت؛ ملوك سقطوا؛ العمال كانوا ساخطين أكثر من أيّ وقت آخر؛ رفض الأغنياء مطالبهم أكثر من أيّ وقت آخر؛ وبدأت تتكوّن قوى كبيرة جديدة - إيطاليا وألمانيا - بشكل مضطرب؛ وبدأت الحروب أو بدت أن تكون مهددة؛ لم يمر يوم من دون بعض الأخبار المثيرة؛ كل الأرض كانت مليئة بالحوادث الجديدة - وربما كان على المرء أن يفكر أن تلك الكثرة من الحوادث كانت من النوع نفسه مثل فوضى حوادث اليوم. إلاّ انّه يكون من الخطأ التفكير كذلك.

كلّ حادث وقع في 1848 كان يتميز بجلاء عن كلّ حادث آخر، قائم بذاته بصورة بيّنة، غير قابل للمبادلة مع أيّ حادث آخر، يملك ملمحه وتأثيره المتفرّد والخاصّ. وعلاوة على ذلك، فأنّ عملاً خاصاً كان ضرورياً لكي يكون موجوداً البتة، وقد وجد حقاً بصورة مطلقة، متفرّدة ومحدّدة. كان صادقاً بسبب قدراته الخاصّة وليس بسبب الإثارة حوله فحسب. الوسط الذي وجِد فيه خلقه بدءاً الحادث ذاته.

لكنّ الأمر على العكس تماماً اليوم. في البداية يأتي الوسط - أعني، الضجيج اللفظي؛ ذلك هو الشيء المهم. إنه يجذب الحادث، أيّ، إنه يصوغ من نفسه شيئاً و(يحوّله) إلى شيء يشبه حادثاً. لكن الحادث ليس

ظاهرة محدّدة: إنه مجرّد تركيز وتكثيف للصخب، ليس أكثر من ذلك. ولهذا تكون كل الحوادث متشابهة، ولهذا أيضاً تثير القليل من الاهتمام. لا يزعج الناس أنفسهم حول السياسة اليوم، لأن الحوادث أضجرتهم. يتم نسيان الحوادث بسهولة، حتى إن الإنسان لا يحتاج أن ينساها بنفسه: الضجيج يحقّق له ذلك.

لو لم تنحلّ الأحداث في الصخب، لو أنها ما زالت حقيقية، فسيكون من المستحيل عليها أن تتابع الواحدة الأخرى بسرعة. لأن الحدث الحقيقي يحتاج إلى قياس معين من الزمن؛ توجد هناك علاقة محدّدة بين حقيقة حادث وأمده. يحتاج الحدث الحقيقي إلى أن يحصل على أمده من استمرارية الوقت. وعندما لا يدوم الحدث أطول في الزمن، بل يظهر للحظة فقط ومن ثم يختفي ثانية، فإنه يصبح شبحاً.

حتى نحو عام 1920 كانت لا تزال هناك حقيقة في الحوادث والمؤسسات: بكلمة أخرى، لا يزال الضجيج اللفظي يدور حول شيء ما، شيء متميز ببعض الوضوح. أصبحت هذه الحركة للضجيج حول الشيء نمطية فعلاً، بيد أنه كان لا يزال ممكناً أن نميّز نوع الأدب الذي أقام حوله الضجيج جلبته، أي، التعبيرية، وهذه التعبيرية لا تزال تبدو مهمة أكثر من كل الصخب حولها. لا يزال ممكناً تمييز فكرة «الإغاثة الاجتماعية»؛ على الرغم من أن صخب الكلمات يضارب حولها ويغطيها، كان لا يزال ممكناً حتى رؤية المبادئ السياسية بوضوح أكبر من صخب الكلمات حولها.

كل ذلك تغير تماماً اليوم. لم يعد الموضوع الذي يقام الصخب حوله، كما في الأيام السابقة، بل إن الصخب الآن هو الأوّلي، إنه يبحث عن موضوع. فهو والموضوع لم يعودا متباينين بوضوح. أصبح الروتين والموضوع غارقين في ضجيج واحد. في الواقع ما زال الناس يتحادثون

عن هذا أو ذاك الأدب المعيّن أو الموضوع السياسي اليوم، لكنها مجرد علامات في داخل الضجيج، مجرّد أماكن حيث يتم تناول الموضوعات في ضجيج عام وحيثما يتعقبها الإنسان لكي يختفي معها في الضجيج.

5

ضجيج الكلمات يسطّح أيّ شيء، يجعل كل شيء متشابهاً: إنّه آلة تسطيح. الفردية هي شيء من الماضي. كل واحد هو مجرّد جزء من الصُخب. لا شيء ينتمي إلى الطريقة الفردية في الوقت الراهن. كان كل شيء كأنه كان مُراقاً في الصخب العام. لكل فرد الحق في كل شيء، لأن لا شيء ينتمي إلى أيّ أحد على وجه الخصوص. حظيت الجماهير بمكانة خاصّة بها. إنها مكملة للضجيج، وهي مثل الضوضاء، لكن في الوقت نفسه هي ليست مثله، تظهر وتختفي، تملأ كل شيء ومع ذلك فهي غير ملموسة في أي مكان.

ضجيج الكلمات بعيد المدى، وهائل جدّاً ولا حصر له، بحيث يكون من المستحيل إمّا أن ترى أين يبدأ وينتهي، أو أن يرى الإنسان هو نفسه أين يبدأ وينتهي. الضجيج مثل سرب من الحشرات: كل ما يراه المرء هو سحابة ضبابية، سحابة من الحشرات تطلق طنيناً يغطي ويسوّي كل شيء.

ينتظر الإنسان شيئاً ما يمزق هذا الضجيج المبهم بصوت حاد وثاقب. إنه متعب من الطنين الرتيب؛ ويبدو أن يكون هذا الضجيج عديم الشكل، المهيّج بصورة مبهمة بانتظار شيء ما، أيضاً، للسقوط فيه وتقسيمه.

صراخ الديكتاتور هو ما ينتظره الضجيج. الصوت الحاد والثاقب للديكتاتور والضجيج العام ينتميان إلى بعضهما الآخر. أحدهما ينتج الآخر، مستحيل وجود أحدهما من دون الآخر.

ما يقوله الديكتاتور لا أهمية له تماماً: ما يهم هو ارتفاع وحدّة ما يقوله. لدى الإنسان الآن علامة يستدل منها على أنّه موجود. سابقاً كان هو مجرد جزء من ضجيج كلمات مبهم، أما الآن فإنّه جزء من لغة ممكننة واضحة.

لغة الديكتاتور الممكننة هي إلى حد كبير مجرد صياح من دون أي محتوى حقيقي بحيث عندما يغزو الديكتاتور بلداً، فكما لو كان الشيء الجوهري ليس توسيع حدود البلد المحتل بل توسيع الصراخ. الهدف هو الصراخ، أن يخرب الصّمت في البلد الأجنبي عن طريق الصراخ، أن يحطم حقيقته الصامتة، ويرمي ضجيج الصراخ حيثما كان الصّمت في السابق.

لغة الديكتاتور المُمكننة هي جزء من الضجيج اللفظي العام، لكن الخشونة البالغة، والعدوانية الفظيعة، وحرب الغزو تتوافق معها أيضاً. الضجيج عديم الشكل جدّاً بحيث إنه ينتظر دائماً شيئاً مبنياً بوضوح ليسقط فيه. يكون الإنسان الذي أصبح ضائعاً في الضجيج كأنما تم إنقاذه بواسطة البنية الراسخة للحرب، وحتى بواسطة البُنية الصارمة للعمل الهمجي. ولهذا السبب يكون من السهل جدّاً شن الحرب وارتكاب الأعمال الوحشية في عالم الضجيج. يتم امتصاص الحرب والقنابل بواسطة فراغ عالم الضوضاء هذا.

سبقت الكلماتُ الفعلَ، مثلما في بداية الزمن، على نحوٍ غير مسموع تقريباً (لطّف الإنسان الكلمات لأنّه يرى أن الكلمات تنتج الأفعال كأنما بواسطة السحر)، ولهذا، في نهاية الزمن، تحدث الافعال مرة ثانية تقريباً من دون مرافقة الكلمات، لكن الآن بسبب فقدان الكلمة قوة الإبداع: فقد تم تحطيمها.

6

تماماً مثلما أنّ الكلمة لم تعد تنبعث عبر فعل خلق محدّد، بل توجد كل الوقت كضجيج مستمر، فإنّ الفعل الإنساني لم يعد يحدث نتيجة لقرار محدّد، بل كجزء من عملية جارية. الطريقة هي الآن الأولية، الإنسان مجرّد ملحق لها. هذه «الطريقة العملية» مضمونة جدّاً بحيث لا تبدو معتمدة على الإنسان إطلاقاً: إنها تبدو نوعاً من ظاهرة طبيعية، مستقلة تقريباً عن الإنسان كلّياً. وهذه العملية اللانهائية التي إلى حد ما خارج سيطرة الإنسان، تتوافق بصورة مطلقة مع مسيرة الضجيج الأبدي. هذه المسيرة الأبدية تخترق كل شيء بصورة كبيرة جدّاً، بحيث إنها تبدو أن تستمر بخفوت حتى في فاصل العمل.

النقطة الأساسية هي ليست غرض المسيرة العملية، بل حقيقة الامر أنها لن تتوقّف أبداً. مثلما سويت الكلمة في الضجيج العام، فقد أخمدت طاقة الإنسان الإبداعية في هذه المسيرة العملية. وليس هناك أي هدف إنساني متروك في هذه المسيرة العملية الأبدية. ظهر هنا نوع جديد من الوجود، وجود صاف من دون هدف، الذي يكون بديهياً فقط بسبب ظهوره المستمر. وتلك هي القوة العظيمة للمسيرة العملية: ذلك أنها أقامت نفسها خارج نطاق النقاش.

لم يتم الحصول على الكثير من خلال إضافة تحسينات عليها. كل المسيرة العملية هي تزوير اليوم، ولهذا لا يمكن تحسينها بواسطة التعديلات. على العكس، مثل هذه التعديلات تعطي الانطباع أن كل العملية هي حقيقية وقابلة للتحسن، ولهذا يمنحونها شرعية مزوّرة.

7

الآلة هي، أكثر حتى من مسيرة عمل، تجسيد للأبدي، تجانس عقيم لعالم الضجيج اللفظي.

الآلة هي ضوضاء تحوّلت إلى الفولاذ والحديد. وتماماً كما أن الضجيج لا يجرؤ على التوقف - كما لو أنه خائف من أنه سيختفي لو أنه لم يشغل كل الحيز على الدوام، ولذلك فهناك ما يشبه الخوف في الآلة التي صنعت لكي تتلاشى كشبح إذا لم تكن تقنع نفسها على الدوام بوجودها من خلال كونها في حركة دائمة.

لم يعد الإنسان يؤمن اليوم أكثر باستمرار الحياة بعد الموت، لكنه يطالب كبديل بنوع من الاستمرار المبهم الذي يبدو أن يكون مضموناً بواسطة عملية الضجيج الأبدية، العمل، والتقنيات. هناك نوع من خلود مزيف في الآلة المتحركة بصورة دائمة. كما لو سيكف الإنسان نفسه عن أن يكون مرئياً لو توقفت الآلة عن الحركة. في عالم لا يكون هناك فيه أي نوع آخر من الخلود، هناك على الاقل حركة مستمرة، أبدية للآلة.

في المعمل كما لو سُكب الصّمت في فضاءات فارغة بين قضبان الحديد وحوّل إلى ضجيج. كما لو كانت الآلات الضخمة تنوي سحق كل صمت الأرض -، كما لو أنها في الحقيقة سحقتها مسبقاً، والآن منهمكة فحسب بالحركات الاخيرة للهضم[1]. تقف الآلآت منتصرة، كما لو أنها تنظر حالياً إلى حملة تدمير جديدة بعد إتمام تدمير الصّمت.

الآلة المتوقّفة تملأ الحيّز الذي تقف فيه حتى أكثر مما حين تكون في حركة. كل شيء يعود إليها الآن. يبدو الهواء ذاته والسكون صلدين مع الفولاذ.

السكون الموجود عندما تتوقّف المكائن عن العمل هو ليس صمتاً بل فراغ. ولهذا يوجد هناك فراغ في حياة العامل بعد عمل اليوم في المعمل. يرافقه فراغ الماكنة إلى البيت. تلك هي القضية الحقيقية لمعاناته،

---

(1) هنا يتخيل عملية هضم للطعام حيث يتم أولّا سحقه ومن ثم هضمه وامتصاصه.

الاضطهاد الحقيقي. يستمر الفلاح، من الجانب الاخر، العيش في الصّمت الذي عمل فيه بعد أن ينتهي عمله. العامل ساكت، الفلاح صامت.

تحدّث الناس عن «عالم الطبقة العاملة»، «عالم الآلة». لكن الآلة التي أدخلت العامل في الفراغ الذي يكون فيه نفسه، لا يوجد عالم، بل نهاية العالم، ونهاية العالم عاجزة تماماً لملء الإنسان بالسعادة، بل (تملأه) بالحزن والكآبة فقط.

لا يمكن مساعدة الإنسان بواسطة الآلة، لأنها تنقله من مجال الزمن الذي هو لحظة خلود. تصنع الآلة المتحرّكة باستمرار فترة آلية من الزمن، التي لا يوجد هناك فيها لحظة مستقلة، ولا «ذرات من الخلود». ليس لهذه الفترة الآلية أيّ نوع من الزمن: إنها لا تملأ الزمن بل المكان. يبدو الزمن أن يكون عالقاً بثبات ومتحولاً إلى مكان.

وعلى هذا النحو يكون الإنسان منفصلاً عن الزمن. ولهذا السبب يكون وحيداً جدّاً عندما يُواجه بالآلة، التي تجعله مجرد كائن المكان. وعوضاً عن حركة الزمن، يبدو المكان أن يكون متنقلاً بحركات الماكنة فقط. ولهذا يعيش الإنسان في المكان فقط، مثلما يتم الحفر في قناة بلا نهاية نحو الأعمق خلال الآلة دائماً.

في عالم[1] الآلة هذا، لا يمكن أن تولد كلمة الشاعر أبداً، لأنّ كلمة الشاعر تأتي من الصّمت، وليس من الضجيج. يبدو كلّ الشعر - الآلي اليوم مسبوكاً من المعدن بواسطة الماكنة ذاتها.

والله الذي هو ممكن في عالم الآلة هذا هو إله مصنوع بواسطة الآلة ذاتها: إله من الآلة [2] بأصدق معنى للكلمة.

---

(1) لجأت إلى الطبعة الألمانية الأصلية لوجود خطأ مطبعي حيث وردت «كلمة الآلة» والصحيح هو «في عالم الآلة هذا..إلخ».

(2) deus ex machina العبارة أصلاً باللاتينية إشارة إلى المسرح الإغريقي القديم بإنزال الاله على خشبة المسرح عن طريق سلك.

8

الشيء المهم بالنسبة للإنسان في عالم الضجيج هذا ليس هو الواقع بل الممكن. الاحتمالات ليست شيئاً مؤسساً بثبات ومرئي بوضوح، إنما تنتقل من غموض إلى غموض آخر. إنها بلا بدايات ولا نهايات. إنها ليست بيّنة، بل إنها على العكس مثل طنين مبهم. مثلما تنتمي الكلمة والواقع الحقيقي إلى بعضها الآخر، ينتمي الضجيج والاحتمال إلى بعضهما.

عالم الضجيج هو أيضاً عالم التجريب. التجربة بطبيعتها ليست كاملة، وغير محدّدة بوضوح. إنها لا تنبعث بسبب عمل محدد، مستقل عن الأفعال الأخرى. إنها ليست ظاهرة مستقلّة بل تشبه فقط استمراراً للتجارب الأخرى، شكلاً مختلفاً لها، مثلما يكون ضجيج لفظي واحد مجرد استمرار لضوضاء أخرى. ولهذا فإن التجارب لن تتوقف أبداً: انها تستمر بصورة أوتوماتيكية. ويصبح الإنسان مجرد مساعد مختبري، الذي يُسمح له بتسجيل كل ما يختارون نقله له.

الطريقة التي تقيّد بها الأشياء اليوم بواسطة قانون العلة والمعلول على هذا المنوال هي مجرد مادة لهذا القانون - هذه العملية هي أيضاً معلقة بالضجيج اللفظي.

لم يكن هذا مقصوداً كهجوم على قانون العلة والمعلول ذاته. قانون العلة والمعلول ضروري؛ انه جزء من البنية الإنسانية. وهناك أيضاً استعداد في الأشياء ذاتها لتكون مقيّدة إلى بعضها البعض الآخر طبقاً لقوانين السببية. لكن لا ينبغي أن تصبح هذه العلاقة مستقلّة، ينبغي ألا توجد لهدفها الخاص، بل ينبغي أن تكون من أجل الأشياء ومن أجل الإنسان.

إنه منهج التحليل النفسي، منهج علم النفس العميق، والجزء الأكبر

من باقي علم النفس، أن تُحلل ظاهرة في سلسلة من التوضيحات المحددة. تصبح الظاهرة محجوبة بالتوضيحات وتختفي فيها. مثلما تتفسخ الكلمة في صخب الكلمات العام، فإن الظاهرة أو الواقعة تتفسخ في عملية التوضيح. مثلما لم تعد هناك أيّة كلمات محددة بوضوح، بل مجرّد صخب الكلمات المبهم، فلم تعد هناك أي ظاهرة واضحة أو وقائع جليّة، بل مجرد شروح غامضة للظاهرة والوقائع.

هناك نوع من آلية التوضيح في العمل فعّالة اليوم تعمل بصورة آلية وتجذب كل الظواهر إلى نشاطها. أصبحت الظواهر ليس إلا مادة لآلية التوضيح هذه. كما لو أن كل شيء قد تم توضيحه مقدماً - حتى قبل الظهور الفعلي للظاهرة ذاتها. إنه ليس التوضيح الذي بُحث عنه لكي يشرح الظاهرة، بل الظاهرة التي بُحث عنها كمادة من أجل التوضيح الجاهز.

تم تفكيك الظواهر الي لا شيء عن طريق توضيحات تحليلية نفسية ونفسية عميقة[1]. فقد حُطِّمت ظواهر الأب، الأم، والابن، مثلًا، بواسطة شروح التحليل النفسي: قتل أوديب أباه وأصبح زوج أمه. قُلِّصت تلك الوقائع وظواهر الأب، الأم، والابن الهائلة بواسطة التحليل النفسي إلى مجرد ملحق عقدة إيروتيكية. بينما جعل سوفوكليس ظاهرة الأبوة واضحة للمرة الأولى خلال القتل، أصبحت واضحة كظاهرة أولية وأساسية: إن الأب المقتول - أب! وإن زنى الابن بأمه يحطّم التصوّرعن الأم في اللحظة الفعلية للزنى، هو حقيقة. لكنّ الأمر بدا أوضح من أي وقت سابق خلال تكفير الابن. لقد صارت صورة ظاهرة الأمومة الأساسية. ليس أوديب بل القدر نفسه يبدو أن يكون من ينتزع عينيه

(1) إشارة إلى مفاهيم التحليل النفسي الذي يشير إلى العلاج والبحث النفسي الذي يأخذ قضية اللاوعي بنظر الاعتبار.

بحيث لا ينبغي عليه رؤية كيف يموت ويحيا الأب، الأم، والابن مرة أخرى، في المعاناة المفرطة (وليس في التفسير المتطرّف).

توجد الظواهر الأولية عن الأبوة والأمومة حتى بثبات أكبر وبصورة مضمونة بعد هذه التراجيديا. تبدو الأرض أن تكون مخلوقة بصورة مضمونة أكثر من قبل. تبدو الظواهر الاولية قد منحت إلى الأرض لأول مرة. لكن التحليل النفسي أخذها من الأرض وأذابها مع كل العالم.

الفلسفة الوجودية المعاصرة هي محاولة للابتعاد تماماً عن ميكانيزم الضجيج والأشياء اللفظية.

يرمي الإنسان نفسه في العدم. إنه يفضّل أن يكون ملقياً في العدم من أن يكون مجرد جزء من آلية الكلمات والأشياء. خلال هذا السقوط تبدو الآلية أن تكون منقطعة، وبعد وصول الإنسان إلى العدم يتوقّف بمواجهة بداية جديدة.

لكن الإنسان الذي يمكن أن يكون بمواجهة بداية جديدة غير موجود على الإطلاق. إنه غير موجود في هذا العدم إطلاقاً: انه منحل فيه. لم يُترك هناك إنسان لمقاربة الأمور الأولية من خلال مقولات الفلسفة الوجودية، أمور كالفزع، الحذر، والموت. يوجد هناك فقط مكان فارغ انغمر فيه الإنسان، والخوف والموت جميعاً في عدم واحد ذائب تماماً. الإنسان في قفرٍ خالٍ. إنه هو ذاته هذا القفر الخالي، الذي يسمع فيه صدى عالم الضجيج حتى بصورة أعلى من السابق.

تمتلك الفلسفة الوجودية شيئاً من نوعية المِثقاب الداخلي، وضجيج هذه الآلة هو جزء من عالم الضوضاء العام.

9

في هذا الضجيج الكوني الذي لم يعد محتوى الكلمات فيه صادقاً

أو مهماً، بل حركته المسموعة الصرفة فقط، والذي تم فيه حجب كل شيء وتسطيحه بواسطة الضجيج، فإن كلا كلمة الشاعر واللغو التافه من الإشاعات تم إغراقهما وابتلاعهما في الضجيج المتفشّي الوحيد.

هنا لا توجد ثمت عزلة ولا جمهورحقيقي؛ فقط اضطراب في الضجيج.

لم تعد قضيتان تعارضان بعضهما الآخر جوهرياً تقفان وجه لوجه، إنهما ببساطة ينسابان بمحاذاة أحدهما الآخر في الضجيج.

لم تعد هناك أي تضادات ولهذا لم تعد هناك أي عاطفة، وأي مصير. ما يبدو كقضاء أو قدر هو ببساطة تكثيف لضجيج متعدّد في جعجعة واحدة ضخمة (جعجعة النازية على سبيل المثال). لكن ذلك هو في الحقيقة ليس أكثر من انفصال موقت، انقطاع في تدفق الضجيج.

لم يعد التخيّل هنا ضرورياً: لدى الصخب كل شيء جاهز.

لا تحتاج الحقيقة أن تتحوّل إلى أكاذيب عندما يريد أي فرد أن يكذب، إذ لم تعد الحقيقة والزيف متميزان عن بعضهما البعض الآخر في الضجيج.

الحياة هنا هي انبعاث من الضجيج، والموت يتلاشى داخلها.

انتشر من خلال آلية الضجيج اللفظي، مع ذلك، شر أكبر من الخير في الخارج، لأن ظاهرة الشر تتوافق مع بنية الضجيج وريبتها وإبهامها مما تفعله ظاهرة الخير. الخير هو معرّف ومحدّد تقريباً دائماً بوضوح. من الجانب الآخر يحب الشر إبهام الظلمة. في الظلام يمكن سرقة كل شيء.

الضجيج اللفظي ليس شرّاً بحد ذاته، بل إنه يمهد الطريق إلى الشر: تصبح الروح مغمورة بسهولة في الضجيج.

الشر الذي ينبعث في الصّمت يكون، مع ذلك، مختلفاً، عن شر، مثلاً، ريتشارد الثالث. إنه موجود في الإنسان قبل أن يتخذ قراراً من أجل الشر، حتى قبل أن يلاحظ وجوده في داخله.

علاقة هذا الشر بالضجيج تشبه تلك العلاقة بين نبات المستنقع والمستنقع: إنهما ينتميان إلى بعضهما منذ البداية ذاتها؛ فعندما يكون أحدهما موجوداً هناك فإنّ الآخر موجود أيضاً. نبات المستنقع والمستنقع، الزيف والضجيج - أحدهما هو تعبير عن الآخر.

صحيح جدّاً، أن الأشياء البسيطة لا تزال، بالتأكيد، باقية على قيد الحياة في عالم الضجيج: الولادة والموت والحب. لكنها توجد في عالم مجرد من الكلمات، مثل الظواهر الخالصة، والعزلة في وسط كل الآلات. يوجد ثمت نور ساطع حولها - ليس مضيئاً في أيّ مكان مثلما هنا - كما لو أنها تحاول أن تحرق الآلات المحيطة بها في نار سطوعها.

يخرج الشعاع من ظواهر الحب والموت والأطفال. ينتقل الشعاع من أحد الظواهر إلى أخرى، وفي هذا الشعاع تكفّ عن أن تكون وحيدة.

فهي تكون مرتبطة بعضها بالبعض الآخر: تتحادث هذه الأشياء واحدة مع الأخرى خلال هذا الشعاع. وحيثما يتم تدمير الكلمة، يصبح هذا الشعاع لغة الأشياء الأساسية.

بقايا الصّمت

1

كما لو كان ينبغي تدمير البقايا الأخيرة للصمت؛ كما لو أن أمراً قد صدر من أجل إحصاء بقية الصّمت في كل شخص وفي كل بيت، ومن أجل أن تستأصل تلك البقية كعدو.

تجول الطائرات في السماء لأن الصّمت عسكر خلف الغيوم. ضربات المراوح تشبه صفعات عديدة ضد الصّمت.

المدن الكبيرة تشبه خزانات ضجيج عملاقة. صنع الضجيج في المدينة، مثلما صنعت البضائع. المدينة هي المكان الذي يكون دائماً في متناول اليد، مفصولة تماماً عن الشيء الذي جاءت منه. الضجيج يفرخ فوق المدينة وينزل على الناس والأشياء.

لكن في الليل، عندما تطفأ الأنوار، تبدو الشوارع مثل أعمدة سقط تحتها الضجيج واختفى فيها. تغفو الناس والأشياء بصورة منهكة، كما لو أنهم لم يعودوا مملوئين بالضوضاء. الناس يطوفون بمحاذاة البيوت كالظلال، وتبدو جدران البيوت مثل الجدران الأمامية لمقابر ضخمة متداعية وتالفة.

يبدو الناس في النوم، مع ذلك، وآذانهم على الوسادات يصغون إلى أعماق الأرض، إلى الضجيج المتلاشي أو ربما إلى الصّمت المندثر.

المدينة الكبيرة قلعة تقاوم الضجيج، يحوم الخراب حولها بفعالية محمومة. يوجد هناك مسعى نحو التدمير، بحث عن التدمير، بحث عن الصّمت بعد الموت.

لم يعد الصّمت موجود كعالم، بل متشظٍ فقط، كبقايا العالم. وكما أن الإنسان مرتعب بواسطة البقايا، فإنه مرتعب ببقايا الصّمت.

ينهار إنسان أحياناً في مدينة ويموت وسط ضجيج الطريق العام. من ثم كما لو أن كل شتات الصّمت، المتمدّد حتى الآن حول وبين قمم الأشجار على قارعة الطريق، ينزل فجأة مرة واحدة على الإنسان الميت. كما لو أن تلك البقايا من الصّمت زحفت إلى الأعماق إلى صمت الإنسان الميت في الطريق، وثمة سكون موقت في المدينة. بقايا الصّمت هي مع الإنسان الساقط لكي تختفي معه في الموت، لتختفي خلال شقوق الموت. يأخذ الإنسان الميت آخر بقايا الصّمت معه.

2

لم يعد الصّمت أمراً بديهياً. وعندما لا يزال يوجد أحياناً في شخص، فإنه يبدو كقطعة متحف أو طيف.

كانت كريستينا ب. مُجيدة عندما جلست في الصّمت: كل شيء كان آنئذ صحيحاً عنها. كانت تشبه ببساطة فلاحة تركض في حقل كبير لوجودها كانت بالذات هناك. عندما كريستينا ب. جلست هناك من دون أن تقول شيئاً، عرف المرء الكلمات التي كانت تخرج غير مسموعة من الصّمت. أنصت المرء لتلك الكلمات، كان المرء مع كريستينا ب.، وبالوقت نفسه في مكان بعيد حيث بدت تلك الكلمات القادمة من

الصّمت أن تغدو حقيقية. كان المرء، خلال سحر هذا الصّمت، هنا وفي الوقت نفسه في مكان بعيد.

لكن حالما تحدّثت كريستينا ب.، كانت كلماتها ضجيجاً، وهي أيضاً، كل المرأة، كانت ضجيجاً. كما لو أنها لم تكن تملك الصّمت الذي كان فيها على الإطلاق. تجوّلت بصورة عصبية جدّاً، كما لو أنه لم يكن داخلها فحسب، بل كما لو لم يتبق هناك صمت في أي مكان.

لا يزال لدى كريستينا بالتأكيد صمت في داخلها، لكنه كان معزولاً عنها تماماً، مقطوعة من الكلمة، ولهذا معزولة عن الشخص. كانت الكلمات تعيش حياتها الخاصّة، والصّمت يعيش حياته الخاصّة: كان وحيداً. كانت الكلمات والصّمت فيها منفصلين عن بعضهما الآخر بحيث بدا كما لو أن الكلمات فقط موجودة فيها عندما تحدّثت، وعندما كانت صامتة فقط صامتة. استأصلت كريستينا في الصّمت من كلماتها، واخترقها الصّمت بصورة كاملة بحيث بدا كما لو أن آخر بقايا الصّمت في العالم استحوذت عليها بصورة شيطانية. جلست هناك مثل شبح الصّمت داخل ضجيج الآخرين.

3

حقاً أنه لا تزال هناك كلمات في عالم الضجيج تأتي من عالم الصّمت، لكنها وحيدة في عالم الضجيج، والصّمت الذي يكون حول حافة مثل هذه الكلمات امتزج بالكآبة. مثل فراشة ذات حافة سوداء، الفراشة البريطانية[1]، مثل هذه الكلمات تحومُ وحيدة في عالم الضوضاء.

---

(1) ترجمة غير حرفية لـCamberwell Beauty، وهي فراشة مهاجرة من الدول الاسكندنافية إلى بريطانيا.

حقاً أنه ما تزال توجد هناك في عالم الصخب كلمات من عالم الصّمت، لكنها تنتمي، مثل كنوز قديمة استخرجت من الأرض، إلى عالم مختلف. ناس الضجيج يرتعبون للحظة عندما يسمعون مثل هذه الكلمات الحقيقية، وهذه اللحظة من الخوف هي أيضاً لحظة صمت - حتى تصل محدلة الصّمت البخارية الضخمة لتسوي الكلمة والصّمت، وتأخذهما معها وتدمّرهما.

مثل هذه الكلمات التي تحافظ على علاقة حقيقية مع الصّمت في وسط الصخب - كما لو أن الله ذاته يخرج من الرخام الأبيض لتمثال مستخرج من الأرض؛ الظهور المفاجئ لله سيكون مثل علامة توقّف لكل شيء متحرّك. لكن في اللحظة التالية نفسها ستتقدم سيارة وتحمل الله بعيداً وتختفي به في السير الصاخب الذي كان قد بدأ ثانية فعلاً، وسيصبح الله مجردَ جزءٍ صغيرٍ من الضجيج، سير متحرّك.

حقاً تم تدمير الضجيج، كعالم له خصوصيته؛ احتل الصوت كلّ شيء؛ تبدو الأرض أن تنتمي إليه. لا توجد هناك وحدة عالمية للروح أو الدين أو السياسة. لكن توجد هناك وحدة عالمية للضوضاء. ارتبط فيها كل البشر وكل الأشياء بعضها بالبعض الآخر.

لكنّ هناك أموراً لا تزال باقية: سكون الفجر، وهبوط الليل الخفي.

لم يكن صمت تلك الأشياء أبداً أكثر كمالاً من الآن؛ ولم يكن أكثر جمالاً أبداً. صمت تلك الأشياء موحش: قوة الصّمت، التي ذهبت ذات مرة منها إلى أشياء الأرض الأخرى وإلى البشر، هي الآن محصورة لنفسها. الأشياء صامتة من أجل نفسها. أحد الرجال الفقراء قال لآخر: «لا أحد يمنحني احترامه، لذلك منحت نفسي الاحترام، وبطريقتي». وهكذا هي تلك الأشياء: لا أحد يمنحها الصّمت، لا أحد يأخذه منها. إنها تمنحها لنفسها وتملّكها لنفسها فقط.

المرض، الموت والصّمت

1

الإنسان اليوم هو من دون نوم لأنه من دون صمت. يعود الإنسان في النوم بالصّمت الذي يوجد فيه ثانية إلى صمت الكون العظيم. لكن تعوز الإنسان الصّمت اليوم الذي تعود أن يقوده ثانية إلى صمت الكون العظيم. النوم اليوم هو تعب فقط يتسببه الضجيج، وردّة فعل على الضوضاء. لقد كفّ عن أن يكون عالماً خاصّاً به.

> «حتى النائمون يعملون كأنهم يتعاونون مع ما يحدث في الكون».
>
> **(هيراقليتس)**

2

حتى في عالم الضجيج يوجد هناك صمت يحيط بالمرض، صمت لا يستطيع كل كلام الأطباء، الصحيح والخاطئ يبدده. كما لو اقتضى من الصّمت، مبتعداً عن كل شيء آخر، أن يختبئ مع المرضى. إنه يعيش معهم كما لو في سراديب الموتى.

غالباً عندما يكون المريض مضطجعاً بصمت، كما لو أن الشخص المريض كان مجرّد مكان استقر الصّمت فيه. جاء المرض، يتبعه الصّمت. إنه يبدو مثل طريق أقيم حيّز عليه من أجل الصّمت. إنه يحتل ببطء كل الجسد، وكلمات المريض وتلك الكلمات للزائر تستطيع بالكاد اختراق الصّمت.

الصّمت كان حاضراً على الدوام مع المريض. ومع ذلك فإن الصّمت الموجود مع المريض اليوم هو ليس نفسه كما في العصور السابقة. الصّمت الموجود مع المريض اليوم مدهش، لأنه ينبغي أن يكون جزءاً من الحياة الطبيعية السليمة، وأبعد اليوم عن الحياة المعافاة ويعيش فقط مع المريض.

دخل الضجيج الآن في ذلك الجزء الصالح من الحياة الذي اعتاد أن ينتمي إلى الصّمت، لكنّ الصّمت لجأ إلى ذلك الجزء الشرير من الحياة - ينفذ عالم المرض والسقم الإنسان على تلك الطرق الباطنية الشريرة. الصّمت الذي اعتاد أن يكون منقذاً وبارئاً للإنسان أصبح خطراً وكارثة.

هناك علل تشبه الصّمت الحقود ذاته: الصّمت الذي يكون حقوداً لأنه طُرد ويستطيع فحسب أن ينسل إلى الإنسان من كهوف المرض المظلمة. السرطان هو مثل هذا المرض. إنه مطوّق بالصّمت. هذا لا يعني أن أصل المرض لا يزال ملفوفاً بالصّمت، بل إن الإنسان يكون أكثر سقماً بالسرطان مما تظهره كل الأعراض، التي تشبه أعراض صمت شرير فحسب.

3

أُجبر بروفيسور ل. بجرة قلم ان يتحدّث ببطء شديد. لم يعتبر الأمر خسارة ان تجد كلماته صعوبة في الظهور من الصّمت إلى الصوت. قال إنها كانت قضية سهلة بالنسبة إليه أن يتحدث في السابق؛ كانت الكلمات

تأتي بصورة سهلة كلياً، متنقّلة بسرعة من واحدة إلى أخرى، ولم تنبعث ببطء من الصّمت. لكن الآن وبسبب هذا المرض فإنه كان بالفعل حادثاً بالنسبة لكلمةٍ كي تصبح صوتاً. كان الأمر مثل مخلوق جديد كان قادراً كلّ مرة على إخراج كلمة من الصّمت. كان الأمر نفسه معه مثلما مع إنسان القرون الوسطى، الذي كانت كل لحظة من الصّمت في الكلام بالنسبة إليه حادثاً بذاته. ما لم ينجزه أبداً في وضع المعافاة - ممارسة ولادة الكلمات من الصّمت كحادث استثنائي - فإنه، بكلمات أخرى، قد تمكّن الآن من القيام بتجربة شخصية بسبب مرضه.

بهذه الطريقة تجاوز بروفيسور ل. مرضه. وليس ذلك فقط، بل إنه أصبح خلال مرضه أكبر مما كان سابقاً.

(4

تقف الأزهار، الحقول، الجبال بكل حقيقتها الساطعة أمامنا، كما لو أنها ستبقى إلى الأبد وعلى هذا النحو، كما لو لن تكون هناك حاجة لأيّ فرد كي يتذكّرها عندما تتحوّل بهدوء في الشتاء.

وقف شخص ينظر إليها وفكر بموته وكيف أنه لن يرى كلّ هذا ذات يوم.

في اللحظة التي فكّر فيها بالموت، كان مهزوزاً من الواقع الحالي، ونظر إلى الأزهار، إلى المروج، وإلى الأشجار كما لو أنّها من أرض الموت فعلاً. إنها تبدو الآن كما لو أنه يراها من خلال نهاية التلسكوب المضَلِّلة: بعيدة جدّاً وصغيرة جدّاً.

(5

«مهما نملك في بيوتنا وقلوبنا، مهما نكن أمام الله

والإنسان، مهما نحتاجه في الحقل والغابة، في المطبخ والسرداب، فإنها تجارب واختراعات، مكتسبات واكتشافات الميت التي أغنتنا بصورة كبيرة، التي نرتكن ونعتمد عليها لكي نحقق أموراً أفضل وأسمى. وهكذا فكل واحد منا يملك جزءاً من إرث الماضي الضخم، وما لم يكن الإنسان مريضاً ذا عجرفة مسعورة، فإنه سيشكر أولئك الذين رحلوا قبله على كل هذه الآلام، الثمار التي نحصد منها اليوم بمثل هذه الوفرة».

(غوتليف)

يكون الإنسان في علاقة مع عالم الموتى هذا فقط، إذا يكون في علاقة مع عالم الصّمت فعلاً. إنّه في صّمت حياته فقط يسمع كلمات الموتى ثانية. عندئذ يحمل الموتى الصّمت إلى عالم الإنسان، إلى عالم الكلمة. فهم يمنحونه بعض القوة الموجودة في الصّمت. ويجعلون البشر والأشياء متقبلين للقوة القادمة من الصّمت.

لم يعد الموت اليوم عالماً من خاصته، إنه الثمالة الأخيرة للحياة فحسب، إنه مجرّد حياة منتهية، استهلك الحياة، ولم يعد ولا حتى الصّمت ينتمي اليه أكثر. الصّمت كما أعير له فقط، أُعير له من شفقة.

إلى أن يظهر الموت دفعة واحدة ثانية كعالم واحد بصفته الخاصّة، وتبدو الحياة مجرّد مقدّمة لهذا العالم. يمكن أن يظهر (الموت) على هيئة حرب، وبينما يعجز ملايين الموتى في الحرب عن جلب الصّمت، تجلبه بدلاً من ذلك فظائع الحرب. عندها يأتي الصّمت الذي طُرد من الحياة ومن الموت خلال ذهول الرعب.

«تماماً لأن الموت يجعلنا نشعر بغرائب العالم بواقعية أكثر، فينبغي أن يكون آخر شيء نستخدمه في العالم

لجعل الحياة أكثر صعوبة لبعضنا البعض الآخر. لنحترم بالأحرى الموت كأوضح رمز لشراكتنا في الصّمت، الرمز المعلّق فوقنا جميعاً مثل مصير لا مفر منه».

(أوفربيك)[1]

(1) يوهان فردريك أوفربيك: شاعر ورسام ألماني عاش في الفترة (1789-1869).

العالم من دون صمت

لا شيء غيّر طبيعة الإنسان بصورة كبيرة جدّاً مثل فقدان الصّمت. اختراع الطباعة، الأساليب الفنية، التعليم الإجباري - لا شيء غيّر الإنسان كهذا النقص في العلاقة بالصّمت، هذه حقيقة أن الصّمت لم يعد بديهة، كشيء طبيعي كالسماء التي فوقنا أو الهواء الذي نتنفس.

الإنسان الذي فقد الصّمت لم يفقد سمة إنسانية واحدة فحسب، بل تغيّرت كل بُنيته عبر ذلك.

الصّمت السابق حجب كلّ شيء: كان على الإنسان أن يخترق حجاب الصّمت قبل أن يتمكن من الاقتراب إلى موضوع، فقد صان الصّمت حتى الأفكار التي أراد التفكير بها بنفسه. لم يتمكّن الإنسان من أن يبذل غاية جهده مباشرة على الأشياء والأفكار: كانت مطوّقة بالصّمت المحيط بها، وكان الإنسان محمياً من التحرّك نحوها بسرعة كبيرة جدّاً. كان الصّمت متمركزاً أمام الأشياء والأفكار. إنه موجود هناك بموضوعية. إنه مُعسكر هناك مثل جيش حماية. يتحرّك الإنسان ببطء وهدوء نحو الأفكار والأشياء. كان الصّمت على الدوام حاضراً بين الحركة من فكرة إلى أخرى، من أحد الأشياء إلى آخر. قاطعَ إيقاعُ الصّمت الحركةَ.

أصبحت كلّ حركةٍ عملا خاصّا: الصّمت، صخرة الصّمت البدائية، ينبغي إزالتها قبل أن يتمكّن المرء من الحركة إلى أمام. لكن حين بلغَ المرءُ بعد تفكيرٍ متأنٍ فكرةً، فإنه كان هناك مع الفكرة حقاً، والفكرة أو الشيء موجود لأول مرة فعلاً. الواقع الملموس خُلق، كما هو، في مواجهة فردية مباشرة مع الإنسان.

لم يعد الإنسان اليوم يتحرّك بتأنٍ نحو الأفكار والأشياء. إنها منغمسة في خوائه، إنها تندفع نحوه، إنها تلتف حوله. لم يعد الإنسان يفكّر، فلديه تفكيره المُعد له. تم استبدال أنا افكر، إذن انا موجود/ بـ مُفكّر بي، إذن انا غير موجود[1].

لم تكن الأرض أقل ازدحاماً منها اليوم، لكنها كانت محتلّة بالصّمت، وكان الإنسان عاجزاً عن أن يقبض على أيّ شيء فيها كما لو تماسك كلّ شيء بواسطة الصّمت. لم يحتج الإنسان إلى معرفة كل شيء: عرف الصّمت كلّ شيء من أجله. وبينما كان الإنسان مرتبطاً بالصّمت، فقد عرف أشياء عديدة خلال الصّمت.

لم تعد سماء الصّمت تغطي عالم الأفكار والأشياء اليوم، وتقيّدها بوزنها وضغطها. وحيثما اعتادت أن تكون هناك، هو الآن فضاء فارغ،

---

(1) يعود أصل العبارة «Cogitor, ergo sum» الى الفيلسوف الالماني إمانوئيل كانط، وقد قابلها الرد المسيحي الذي يقول «Cogito, ergo sum» أي «مفكر بي، إذن انا موجود»، أي يردّ الأمر الى الله. ولهذا يقول بيكارد إن الانسان يمتاز بالبلادة حالياً بحيث تم نفي العبارة المسيحية السابقة التي تقابل مفهوم كانط بعبارة «Cogitor, ergo non sum» «مفكر بي، إذن فانا غير موجود».

انظر بخصوص هذا النقاش: -Joris Geldhof , Revelation, Reason and Reality Theological encounters with Jaspers , Schelling and Baader, Leuven– Paris– Dudley, Am: Peters, 2007, p.70 and after.(مّلاحظة المترجم)

وكأن الأشياء مرتبة في الفضاء بفعل قوة الجذب حيث اعتاد الصّمت أن يقيم. تم كشف الأشياء، وتعريتها وضغطها الى الأعلى. تندفع الأشياء أكثر فأكثر باستمرار إلى الأعلى، وتلك هي «انتفاضة الجماهير» الحقيقية، هذا التمرّد للأشياء والأفكار الذي لم يعد مكبوحاً بضغط الصّمت.

لا يكون الإنسان واعياً حتى بفقدان الصّمت: شُغل المكان إلى درجة كبيرة سابقاً بالصّمت، ومملوء إلى درجة بالأشياء بحيث لا يبدو أن يكون شيء مفقوداً. لكن بينما كان الصّمت يغطي الشيء سابقاً، فالشيء يغطي شيئاً آخر حالياً. بينما كانت الفكرة في السابق مغطاة بالصّمت، تسرع آلاف تداعيات (الافكار) اليها حالياً وتدفنها.

في هذا العالم اليوم الذي يكون مقدّراً كلّ شيء فيه على أساس الربح المباشر، ليس هناك مكان للصمت. طُرد الصّمت لأنّه كان غير منتج، لأنّه وجد فحسب ولا يبدو أنّ لديه هدفاً.

نوع الصّمت الوحيد الموجود اليوم تقريباً هو نتيجة لفقدان المقدرة على الكلام. إنه سلبي بإفراط: غياب الكلام. إنّه يشبه فحسب عائقاً تقنياً في التدفّق المستمر للضجيج.

ربما لا يزال يوجد هناك صمت قليل؛ يكون قليل (من الصّمت) مع ذلك مسموحاً به. تماما مثلما سُمح للهنود الذين أُبيدوا بصورة كاملة تقريباً، مع ذلك بحيّز عيشٍ صغير في محمياتهم البائسة، كذلك سُمح للصمت أحياناً بشق من المكان في المصحّات بين الثانية والثالثة بعد الظهر: «ساعة من الصّمت» وفي «الثانيتين من الصّمت» التي ينبغي على الجماهير أن تكون صامتة «في ذكرى...[1]»، لكن لا يوجد هناك أبداً صمت خاص في ذكرى الصّمت الذي لم يعد موجوداً.

---

(1) كأنه يريد ان يقول «في ذكرى فلان من الناس» لكنه، مع ذلك ترك فراغا.

حقاً إن الصّمت لا يزال موجوداً كصمت حقيقي لدى الجماعات الرهبانية. كان صمت الرهبان في العصور الوسطى لا يزال مرتبطاً بصمت آخرين خارج دير الرهبان. الصّمت في أديرة الرهبان اليوم معزول؛ إنه يعيش بالحرف الواحد فقط في اعتكاف رهباني.

الأمل

تشبه بيوت المدينة الكبيرة معاقل صغيرة ضد الصّمت. كما لو كانت إطلاقات تطلق من نوافذها ضد الصّمت.

تبدو أن تكون البيوت والساحات في الليل مرفوعة عالياً بواسطة الأضواء، ولم تعد ثابتة على الأرض، بل تحوم في الهواء. كما لو أن الهواء يرفع المدينة؛ تبدو مثل بالون ضخم يحوم فوق نفسه. تسطع الأنوار أكثر فأكثر، خضراء وزرقاء، وتبدو المدينة محلّقة. لكن السماء والنجوم ترتعش فوق المدينة.

ثم في دفعة واحدة تنطفئ الأضواء. تنبعث لحظة صمت، من ثم كما لو كانت المدينة تفكّر فيما لو تقذف نفسها على الأرض وتدمرها.

لكن تطل أشعة ضوء أنيس فجأة من خلال شق في قمة سطح بيت. حينها كما لو كانت الأشعة مرسلة، مثل حمامة من سفينة نوح، لترى فيما لو أن الوقت حان لترسو المدينة على جبل الصّمت. لكن أشعة الضوء تعود إلى قمة سطح البيت. كانت مهمتها بلا جدوى - حتى جاء القمر وقبل أن يختفي بحلول الصباح، أخذه معها في أشعته.

ربما لم يُدمر الصّمت بصورة كاملة بعد. ربما لا يزال موجوداً في

الإنسان، لكنه نائم. لأنه يحدث أحياناً، أنّ خاصيّة الفرد أو الأمّة تكون كأنها ميتة منذ فترة طويلة، مغطاة بخاصية أخرى. مثلاً، يمكن أن يبدو الإبداع الشعري لأمة مندثراً، تجاوزته المواهب العلمية والسياسية. لكنه يظهر ذات يوم ثانية، وبقوة جدّاً بحيث يبدو أن يفيض بكامله في فضاء السنوات الخاوية. أو ربّما أن عصراً عقلانياً، إلى درجة كبيرة، بحيث يبدو أنّه لن يكون هناك أي شيء سوى العقلانية في المستقبل. لكن العقلانية تختفي فجأة ويظهر عصر ضد العقلانية. لم يتم تحطيم القوة الميتافيزيقة في الإنسان؛ إنّها لم تمت بل نائمة فقط. ويبدو أن على اتجاه واحد للروح أن يظهر نفسه من وقت إلى آخر بوضوح أكبر وبقوة أكثر مما يريد حقاً، وبذلك يمكن أن يكون الآخر مختفياً ويتعافى في أمان.

ربما يكون الأمر على هذا النحو مع الصّمت، أيضاً. ربما إنه لم يكن ميتاً بل نائم، راقد فحسب. وبالتالي سيكون الضجيج الجدار الوحيد الذي ينام الصّمت خلفه، ومن ثم لن يكون الضجيج المنتصر على الصّمت، ولن يكون سيده، بل حارسه المطيع بينما سيده، الصّمت، ينام.

> «آه، قالت سلينا، أليست فكرة مريحة، هذه الثروة المخفية في أرواحنا؛ ألا يمكننا أن نأمل أننا نحب الله من دون وعي وبصورة جوّانية أكثر مما نعرف، وأن غريزة هادئة تعمل من أجل العالم الآخر في داخل نفوسنا، كلّ الوقت الذي نسلم أنفسنا إلى العالم الخارجي بصورة كبيرة جدّاً».
>
> (جان بول)[1]

يبدو أحياناً كما لو أن معركة ستحدث بين الصّمت والضجيج؛ كما لو كان الصّمت يحضّر بسرية إلى غزوة.

---

(1) لا توجد أي إشارة في الكتاب إلى من هو «جان بول» وحاولت أن أعثر على مصدر العبارة في مصادر بحث متنوعة من دون نتيجة.

الضجيج قوي، لكن يبدو الصّمت أحياناً حتى أكثر قوة - قوي جدّاً إلى درجة بحيث إنه لا يلاحظ فيما لو يكون الصّمت هناك أم لا.

صحيح أن الضجيج يزداد على الدوام، يجمّع دائماً أكثر وأكثر من الأشياء في نفسه. لكن ربما تم تكديس كلّ شيء في الضجيج وبذلك يمكن تدميره كلّياً بسهولة كبيرة حين يشن الصّمت هجوماً مباغتاً.

ربما ستنفجر هذه الآلية الهائلة للضجيج عبر عنفها الخاص بها، وسيكون الخبرُ نداءً إلى الصّمت قائلاً له إن وقته قد حان.

«يا حارس، ما الوقت في الليل؟

يا حارس، ما الوقت في الليل؟

فقال الحارس:

الصباحُ آتٍ والليل أيضاً

إن طلبتم فاطلبوا، إرجعوا، تعالوا».

(أشعيا، 11:21)

الصّمت والإيمان

1

هناك علاقة بين الصّمت والإيمان. ينتمي حقل الإيمان وحقل الصّمت إلى بعضهما البعض. الصّمت هو الأساس الطبيعي الذي تم إنجاز طبيعة الإيمان المافوقية عليه. صار الله إنساناً من أجل الإنسان. هذه الواقعة استثنائية كلياً وهي بصورة كبيرة ضد إدراك العقل وضد كل شيء رأته العين، بحيث عجز الإنسان عن أن يقوم برد فعل تجاهها بالكلمات. تقع طبقة من الصّمت بين هذا الحادث والإنسان، واقترب الإنسان في هذا الصّمت من الصّمت الذي يحيط بالله ذاته. يلتقي الإنسان مع اللغز[1]، لأول مرة في الصّمت، لكن الكلمة التي جاءت من الصّمت أصلية، مثلما لم يُنطق قبل الكلمة الأولى أي شيء أبداً. ولهذا السبب فإنها قادرة على الحديث عن السر.

إنها علامة حب من الله أن يكون لغزاً مفصولاً دائماً عن الإنسان بطبقة من الصّمت. وذلك هو أيضاً تذكير أن على الإنسان أن يبقى صامتاً

(1) يمكن ترجمتها أيضاً السر أو الطلسم

ليقترب فيه من اللغز. اليوم، عندما لا يكون هناك سوى الصخب في داخل الإنسان وحوله، فمن الصعب الاقتراب من اللغز. حين تكون طبقة الصّمت مفقودة، يصبح الاستثنائي مربوطاً بالعادي، بالتدفّق الروتيني للأشياء، ويقلّص الإنسان الاستثنائي إلى مجرّد جزء من العادي، إلى مجرّد روتين آلي.

ما يقوله العديد من الواعظين عن لغز الله هو بلا حياة غالباً ولهذا تافه. ما يقولونه يأتي من كلمات مختلطة مع آلافٍ عديدةٍ من الكلمات الأخرى. إنه لم يأتِ من الصّمت. بل تم إنجاز ذلك اللقاء الأول بين الإنسان ولغز الله في الصّمت، ومن الصّمت استقبلت الكلمة أيضاً القوة لتصبح استثنائية مثلما يكون لغز الله استثنائياً. من ثم ارتفعت فوق نظام الكلمات العادي، تماماً مثلما لغز الله سما فوق روتين الأشياء العادي. كما لو أن الكلمات قد خلقت من أجل لا شيء آخر سوى لبيان الاستثنائي. بذلك تصبح متجانسة مع الاستثنائي، مع اللغز؛ وبذاك فإن لديها قوة شبيهة لما للغز.

صحيح أن الإنسان يكون خلال سلطة الروح قادراً على منح قوة أولية إلى الكلمات، لكن الكلمة التي تنبعث من الصّمت تكون أولية مسبقاً. ليس العقل الإنساني بحاجة ليستهلك نفسه في منح الكلمات قوة أولية التي منحها الصّمت مسبقاً. الصّمت يساعد الروح في الإنسان.

من الممكن، أيضاً، أن يحفظ الإنسان نفسه في الإيمان خلال الروح، لكن على الروح أن تبقى في يقظة دائماً، دائماً في حراسة، وسيكف الإيمان عن أن يكون طبيعياً وتلقائياً. وسيبدو الجهد المطلوب، وليس الإيمان ذاته، عندئذ أن يكون الأمر المهم. الإنسان الذي يقوم بمثل هذا الجهد العظيم ليؤمن قد يظهر لنفسه كأنما فرد كلّفه الله ذاته مباشرة بالإيمان، كأنه فرد ألقى الله ذاته على عاتقهِ الإيمانَ. وقد يبدو لنفسه

أن يكون نبياً. صحيح أن الإيمان استثنائي، لكن ما هو استثنائي لا علاقة له بالأحكام الخارجية للإيمان، ولا الجهد المطلوب للاعتقاد. عندما يكون الأساس الطبيعي للصمت مفقوداً، فإنّ الأحكام الخارجية ترتفع في الواقع إلى مستوى الاستثنائي.

2

صمت الله مختلف عن صمت الإنسان. إنّه ليس مناقضاً للكلمة: الكلمة والصّمت متّحدان في الله. كما تؤلف اللغةُ طبيعةَ الإنسان، فإنّ الصّمت هو سجيّة الله؛ لكنّ كلّ شيء في الطبيعة واضح، كلّ شيء هو في الوقت نفسه كلمة وصمت.

> «صوت الله هو ليس صوت الطبيعة، أو صوت كلّ أصوات الطبيعة بأجمعها، بل صوت الصّمت. مثلما هو مؤكد أن كلّ الخليقة ستكون بكماء لو لم يمنحها الرّب قوة الكلام، ومثلما هو مؤكد أنّ كلّ شيء يتنفّس ينبغي أن يحمد لذلك الرّب، فمن المؤكد أنّه هو من يسمع فقط صوت الرّب ذاته في كل الأصوات، الذي يسمع الصوت الذي لا يكون مسموعاً».
>
> **(ويلهلم فيشر)**[1]

يبدو أحياناً كما لو أنّ الإنسان والطبيعة يتكلمان فقط، لأن الله لم يتكلّم بعد، وكما لو أن الإنسان والطبيعة صامتان لأنّهما لم يسمعا بعد صمت الله.

(1) ويلهلم فيشر: لاهوتي سويسري وباحث في علوم الإنجيل القديم، عاش في الفترة (1895-1988) .

تم تحويل صمت الله بواسطة الحب إلى كلمة. كلمة الله صمت إيثاري، تمنح نفسها إلى الإنسان.

لو أنّ إنساناً مثل باول: «سمع كلمات رديئة جدّاً، التي لا يكون مسموحاً للإنسان أن يتفوه بها»، فإنّ هذه الكلمة الرديئة جدّاً ستسقط مثل حمل ثقيل في صمت الإنسان. إنها تجعل الصّمت أعمق، والكلمة التي تنبعث من الأعماق التي يتمدّد فيها ذلك الذي لا يُذكر، تملك أثراً إلهياً لا يوصف فيها.

> «كنت في الفردوس الذي استقبل أعظم نور ورأيت أشياء لا يستطيع أحد أن يقول مَن نزل مِن هذا العالم؛ لأنّ أرواحنا تسارع على دروب حنينها إلى أعماق سحيقة ولا تجد طريق عودتها».
>
> (دانتي، الفردوس)

3

تأتي الصلاة من نفسها ثانية إلى الصّمت. إنها تكون من البداية ذاتها في مجال الصّمت. لقد انتزعت من قبل الله، وأبعدت عن الإنسان؛ إنها تكون غائرة في الصّمت وتتلاشى فيه. لا يمكن أن تنتهي الصلاة أبداً، لكن كلمة الصلاة تختفي دائماً في الصّمت. الصلاة هي تدفق الكلمة إلى الصّمت.

في الصلاة تنبعث الكلمة من الصّمت، مثل كل كلمة حقيقية من الصّمت، لكنها تأتي منه لترحل فحسب مباشرة إلى الله، إلى «صوت انحسار الصّمت».

في الصلاة تدخل منطقة الصّمت الإنساني الأدنى في علاقة مع صمت الله العليا؛ الأدنى يستريح في الأعلى. الكلمة في الصلاة ولهذا

يكون الإنسان في المركز بين منطقتين للصمت. في الصلاة يكون الإنسان محجوزاً بين تلك المنطقتين.

في مكان ما، خارج الصلاة، يكون صمت الإنسان مستكملاً شروطه ويحصل معناه في الكلام. لكن في الصلاة يحرز معناه وكماله في اللقاء مع صمت الله.

في مكان ما، خارج الصلاة، يخدم صمت الإنسان الكلمة في الإنسان. لكن الآن، في الصلاة، تخدم الكلمة الصّمت في الإنسان: الكلمة تقود الصّمت الإنساني إلى صمت الله.

> «حالة العالم اليوم وكلّ الحياة مصابة بمرض. لو كنت طبيباً وطُلبت نصيحتي، فإنني سأجيب: اخلقوا الصّمت! أعيدوا البشر إلى الصّمت. لا يمكن سماع كلمة الله في العالم الصاخب اليوم. وحتى وإن أذيعت بكل عظمة الضجيج، بحيث يمكن سماعها وسط كلّ صخب آخر، فإنها لم تُعد كلمة الله. لهذا اخلقوا الصّمت».
>
> (كيركگورد)[1]

(1) الفيلسوف الدانماركي سورن كيركگورد الذي عاش في الفترة (1813-1855)

عن المترجم

قحطان جاسم، شاعر ومترجم وباحث في علم الاجتماع السياسي، مولود في العراق. يقيم في الدانمارك منذ سنوات طويلة. نشر مقالات ودراسات في الصحف والمجلات العربية حول شتى الموضوعات في الأدب والفن والموسيقى والسياسة. كما نشر في الصحافة الدانماركية.

صدر له العديد من الكتب، البعض منها:

- كتاب: «الثورة النظرية والتطبيق»، 1990
- كتاب: «نظرة في تاريخ العراق السياسي الحديث»، 1992
- «صفحات من المؤامرة الكبرى»، ترجمة، 1994
- ديوان شعر: «رؤى في مملكة الغياب»، 1992
- ديوان شعر: «تجليات العزلة»، 2010
- مختارات من الشعر الدانماركي المعاصر، ترجمة عن الدانماركية، 2015
- سورن كيركگورد: في نقد الفكر الجماهيري ودراسة عن الفرد والإيمان في فكره، ترجمة عن الدانماركية ودراسة، 2016
- فردريك نيتشه، شوبنهاور مربيا،، بيروت، دار أمان، ضفاف والاختلاف، 2016 (ترجمة)

- ديوان شعر:«آن الذهول»، 2016
- لولا بايدل- مختارات شعرية، ترجمة، 2016
- ديوان شعر «أقبض على الجمرة لعلي أضيء العشب»، 2017

قيد الطبع:

- أفق المخيلة - قراءات نقدية في النص الروائي والشعري، 2016
- مختارات من القصة القصيرة العالمية، ترجمة، 2017
- سورن كيركوكورد، التكرار، 2017 (ترجمة)

مخطوطات بانتظار النشر:

- دواوين شعر: «كل ما تبقى»، «تلك نجمة الماء فاتبعها»، «شظايا الوقت».
- مخطوطات بالدانماركية: «الإسلام والسياسة في إيران- من الشاه إلى رفسنجاني»، رسالة ماجستير، جامعة كوبنهاكن، 1998
- تحليل خطاب الاسلاميين والديمقراطية في العراق ومصر- جامعة اودنسة
- الحركة الإسلامية في مصر في خمسين عاماً، طبقاً لنظرية الحركات الاجتماعية ، جامعة أودنسة، رسالة دكتوراه، 2012

إضافة إلى العديد من القصص والمقالات المترجمة المخطوطة.

الفهرس

ماكس بيكارد

عالم الصمت

يكاد القارئ العربي، رغم ترجمة أعمال بيكارد إلى معظم لغات العالم، يجهل تماماً هذا الفيلسوف والكاتب اللاهوتي المهم الذي أطلق عليه اسم «ضمير أوروبا»، ناهيك عن غياب تام لأي ترجمة لكتبه ودراساته إلى العربية، وانعدام كلّي لأيّ بحث، أو متابعة فكرية أو أدبية لأفكاره التي تشغل مكانة مهمة في اللاهوت المعاصر، والتي جعلت كلاً من الروائي هيرمان هيسّه والشاعر ريلكه من بين أشد المحمّسين لكتاباته.

تنبع أهمية فكر بيكارد من تميّز الموضوعات التي عالجها، والقضايا الحسّاسة التي تناولها في كتبه ومقالاته وشرع بها من العام 1919. وتقوم الأفكار الرئيسية في أعمال بيكارد على وقوف الإنسان بين طرفَي معادلة شاقة؛ «مسؤولية محتومة وإمكانية أن يختار». وانطلاقاً من ذلك، اعتبر بيكارد كلّ ما لحق بالبشرية من مآسٍ تالية نتيجة منطقية لانعدام التوازن بين طرفَيْ هذه المعادلة، وبسبب غياب الانسجام، سواء في العالم الخارجي الذي يعيش فيه الإنسان أو عالمه الداخلي. ولهذا فإن الإنسان في العصر الحديث يعيش، بحسب تصوره، حالة تشرذم وهروب جماعي دائم. وقد رأى في الحروب، وصعود الديكتاتوريات وما تبعها من خراب وتدمير طاول الحضارة والإنسان، ومنها صعود الهتلرية إلى السلطة في ألمانيا، تجسيداً حياً لهذا الخلل في التوازن بين عالم الإنسان الداخلي وعالمه الظاهري.

تصميم الغلاف: كريم رسن

ISBN: 978-614-472-010-3

9 786144 720103


مركز دراسات فلسفة الدين - بغداد
Philosopy of Religion Study Center

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس